الاستقامة الحضاريّة
في ضَوء النّسَق الأنطولوجيّ المعرفيّ القرآنيّ

محمّد عليّ ميرزائي*

المستخلص

تستكشف هذه الدّراسة مفهومَ الاستقامة في القرآن الكريم بوصفه إطارًا معرفيًّا وحضاريًّا لمواجهة التّحدِّيات المعاصرة؛ مثل الهَيمَنَة الغربيّة، التّفَتُّت الثّقافيّ، الانحرافات النّفسيّة، والعدميّة النّاتجة عن الأنْسَنَة الحَداثيّة. وتُؤكّد الدّراسةُ ضرورة وأهمِّيّة إعادة صوغ التّفسير القرآنيّ؛ لتعزيز الهُويّة الإسلاميّة ودعم النّهضة الحضاريّة في سياق عالميّ يشهد هيمنةً ثقافيّةً وأزمات وجوديّة.

تعتمد الدّراسة منهجيّة نَسَقيّة تحليليّة تَجمع بين التّفسير النصّيّ، والتّحليل الفلسفيّ، والقراءة السُّننيّة الوجوديّة؛ لفهم القرآن بوصفه نظامًا متكاملًا يربط الآيات والسّور بمنظومة معرفيّة شاملة، تتجاوز التّعاملَ الاقتساميّ العِضينيّ الذي يُشوّه دلالاتِ النّصّ. تُبرز القراءة النّسَقيّة أهمّيّة التّكامل بين النّصوص القرآنيّة، كما في ربط آيات الاستقامة بمفاهيم، مثل: الكَدْح، والسّعي، والصّبر، والمقاوَمة؛ لاستخلاص معانٍ شاملة تَدعم الفاعليّةَ الحضاريّةَ.

أمَّا الرؤيَة الأنطولوجيّة الحضاريّة، فتُقدِّم منطلقًا جديدًا لِضوابط التّفسير والتّأويل،

* دكتوراه في المدارس الكلاميّة الإسلاميّة المعاصرة من جامعة الأديان والمذاهب (إيران)، متخصّص في الدراسات القرآنيّة الحضاريّة، أستاذ أكاديمي ومدرّس في الحوزة العلميّة، ومؤسّس مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ في لبنان.

مُركِّزةً على الوجود الإنسانيّ والحضاريّ في سياق السّنن الإلهيّة، مُستلهِمةً تَجاربَ الأُمَم السّابقة.

تستخلص هذه الدّراسة، أنَّ الاستقامة ليست قيمة أخلاقيّة أو شرعيّة بالمعنى التّقليديّ للشّريعة فحسب، بل هي إطار وجوديّ يُواجه الطّغيانَ النّفسيّ والحضاريّ، وتحمي الأُمّةَ مِنَ الانحرافات النّاتجة عن القابليّة النّفسيّة للضّلال والإخفاق في تحقيق المقاصد الأساسيّة. كما تُحذّر الدّراسة مِنَ التّوجّه الذي يُفكّك النّصّ القرآنيّ ويُضعف تأثيرَه الحضاريّ، مشيرةً إلى أنَّ التّعامل الجزئيّ مع النّصوص قد أدَّى إلى فقدان الرّؤية الشّاملة وتَشَتّت الهُويّة الإسلاميّة.

تنتقد الدّراسة الأَنْسَنَة الحَداثيّة التي أنتجتْ العَدَميّة وأضعفتْ المرجعيّة الدّينيّة، داعيةً إلى إعادة بناء الوعي الحضاريّ من خلال التّزكيَة النّفسيّة، التي تعدّها أساسًا للصّمود والمقاومة، مُبرزةً للنّسَقيّة والرّؤيةَ البراديغميّة في فاعليّة المنهج المعرفيّ؛ إذ تربط المفاهيم القرآنيّة بإطار متكامل يُعزِّز الإبداعَ الاجتهاديّ، ويُوفّر أُسُسًا للنّهضة الفكريّة. كما تناقشُ كيفَ أدّتْ الهيمنةُ الغربيّة إلى فرض نَماذج ثقافيّة مُغايِرة، ممَّا يَستدعي مُقاومةَ فكريّة مُستنِدةً إلى القرآن الكريم. تختتم الدّراسة بدعوة إلى تطوير مناهج تربويّة نسقيّة تستلهم الرّؤية القرآنيّة الشّاملة؛ لِتعزيز الهُويّة الإسلاميّة ومواجهة التّحدّيات العالميّة.

المقدّمة

في عصرٍ تُهيمِن فيه القِوى العالميّة على مُقدّرات العالَم، وتَسعى إلى فرض إرادتها على كلِّ شيء، وفي زَمَن الطّغيان المطلق حيث يعمّ الفساد ويظهر في البرِّ والبحرِ[1] والجوّ، وتتجلّى آثاره في مختلف المجالات التي تُؤثّر في شَكل التّربية الإنسانيّة وصياغة الكينونة البشريّة، أصبح الإنسان يعيش أزمة أخلاقيّة، واجتماعيّة، وثقافيّة، وسياسيّة[2]. وفي هذا السّياق العالميّ المُضطرب، لا يمكن أنْ تتقدَّم أولويّةٌ على فكرة «الاستقامة» والصُّمود والمُمانعة. فالاستقامة هي الحِصن المَنيع الذي

1- ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الرّوم، الآية 41).

2- بعد الإبادة البشريّة في غزّة ولبنان، مَن يستطيع إنكار هذه الحقيقة التي قد تحقّقت أمام أعين العالم والمؤسّسات الدّوليّة؟

يَحُولُ دون الانهيار الشّامل، وضَياع فرصة الإنسان في السّعي نحوَ الرّقيّ والرّشد والكمال.

إنَّ الحديثَ عن الإنسانِ وتعميق النّظرِ في أحوالِه النّفسيّةِ والمعرفيّةِ، والغوصَ في كينونتِه التي تتشكّلُ مِن تداخلاتِ سياقاتِ الثّقافةِ والاقتصادِ والسّياسةِ، هو في جوهرِه تناولٌ للعنصرِ الأشدِّ تأثيرًا وحسمًا في مصيرِ الحياةِ الحضاريّةِ ومآلاتِها. لعلّ السّببَ الرّئيس الذي يجعلُ النّظرةَ القرآنيّةَ شاملةً للإنسانِ، فتُبيّنُ أبعادَه الوجوديّةَ وعناصرَ صلاحِه وفسادِه، عبرَ عنايةٍ مُكثّفةٍ به في آياتٍ محوريّةٍ، يرجعُ إلى أنَّ الشّأنَ التّربويَّ المَعنيّ ببناء الإنسان يَحظى بالأولويّةِ والأصالةِ في الخطابِ القرآنيِّ بصفةٍ عامّةٍ.

هذا، على الرّغم من أنَّ النّظام التّربويّ الرّسميّ الدّينيّ في المؤسّسات الدّينيّة يتعامل مع هذا الاتّجاه مِنَ النّظر في الإنسان بقدرٍ كبير مِنَ التّجاهل والإهمال، وذلك بسبب مَهجوريّة التّأمّلات العميقة في الدّراسات القرآنيّة، والتّركيز على جانب «الأحكام» والواجب والحرام، من دون التّعمّق في الرّؤية الأنطولوجيّة للمعرفة الدّينيّة، والتي لو كانت متوافرةً وظاهرةً للعيان، لكانَ الاهتمام بالدّراسات الإنسانيّة من أولويّات العلوم الدّينيّة.

مهما يكن مِن أمر، يبدو بوضوح أنَّ استقامةَ الإنسانِ هي الأصلُ الوجوديّ الثّابتُ، والعاملُ الحاسمُ لكلِّ شؤونِ الحياةِ. ذلك أنَّ واقعَ الخيبة والفلاح[1] في القرآن الكريم، على الرّغم من ارتباطهما بالعامل النّفسيّ، يتحقّقان في الحياة بجميع أبعادها وتفاصيلها. لا يمكنُ أنْ نتخيّلَ صلاحًا أمرَ اللّهُ به، أو فسادًا نهى اللّهُ عنه في القرآنِ، إلّا وكانَ ذلك مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بتحقّقِ الاستقامةِ في النّفس، أو فقدانِها قبل أيّ شيءٍ آخر. وهذهِ حقيقةٌ تُدهشُ العقلَ وتتجلّى بوضوح تامٍّ عندَ تدبّرِ الآياتِ؛ لأنّها صريحةٌ وواضحةٌ في بيانِ علاقةِ كلِّ تلكَ الأمورِ بالاستقامة، وبيانِ كيفيّة قوّة الاستقامةِ أو ضعفِها في البنيةِ النّفسيّةِ للإنسانِ. ومنَ المسلّمِ بهِ، أنَّ الحضاراتِ ترتقي أو تنحطُّ متأثّرةً بحالِ إنسانِها وما عليهِ طباعُه[2].

في زمننا هذا، كان مِنَ الطّبيعيّ المنطقيّ أنْ تزدادَ في المناهج التّربويّة في بناءِ الإنسان، آليّاتٌ جديرة وفاعلة في ترسيخ الاستقامة، وترشيد الإرادة، والتّحكّم

1- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (سورة الشّمس، الآيتان 9-10).

2- سورة الإنسان في القرآن الكريم نموذجًا.

بالنّفس وأهوائها ومُيُولها ونزوعها نحو الطّغيان، جَنبًا إلى جَنب، مع ازدياد قهريّ عالميّ شامل لِعناصر الإغواء والتّشهية والإلهاب النّفسيّ وطُغيان الرّغبات الدّنيويّة المادّيّة، التي أصبحت من الخصائص الذّاتيّة للحداثة الغربيّة، حتّى لا يفقدَ الإنسانُ في حياته عنصرَ الاستقامة والصّمود والمُمانعة أمام هذه الأوضاع.

ولأنَّ مصير حياتنا العقيديّة، أيضًا، مرتبط بمقدار الاستقامة التي نمتلكها أوّلًا، ونُبديها ثانيًا في مواجهتنا للتّحدّيات، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾[1]. ذلك كلّه؛ لأنّ المجتمعَ إذا فَقَدَ عنصرَ الاستقامة، خَسِر المنظومةَ الفكريّة والهُويّة الأساسيّة أيضًا. فالأعداءَ يعلمون جيّدًا أنَّ سبب الاستقامة هو متانة العقيدة، ومن دونها يسهل القضاء على جميع التّحصينات النّاعمة والصُّلبة.

إنَّ أدنى تأمّلٍ في الحالة السّائدة ـ لا في ربوع الأُمّة الإسلاميّة فحسب، بل في عموم المشهد الإنسانيّ ـ يُطلِقُ صفعةً للوعي، ويكشفُ عن واقعٍ شاذٍّ يعجِزُ الوصفُ عن إحاطته إلّا بمصطلحاتٍ، مثل: «الانهيار الحضاريّ»، «الغيبوبة العقليّة»، و«الرّكود الرّوحيّ». فالهيمنةُ الخارجيّة المُطلَقة على مُقدّرات الشّعوب ومَصائرها، في كلِّ منحىً مادّيٍّ وإنسانيٍّ، إلى جانب الاستسلام الدّاخليّ المُريع لهذا النّفوذ، ينسجان معًا لوحةً كئيبةً لواقعٍ تُحاصَرُ فيه الإرادة، وتُسطَّرُ فيه الهزيمةُ قبل خوض المعركة!

هذا الواقع المرير ليس مجرّد تَراجُع عابر، بل هو زلزالٌ يهزُّ أركانَ الوجود الإسلاميّ من أساسه: تَشَرْذُم في الفكر، وتَراجُع في الأخلاق، وتفكّك في المنظومة الاجتماعيّة، واستلابٌ للهُويّة تحت وطأة الغزو الثّقافيّ المُمَنهج. فكيف لأُمّةٍ تمتلك أعظم مشروعٍ تحرُّريٍّ في التّاريخ ـ القرآن الكريم ـ أنْ تتحوّل إلى كيان مُستهلِكٍ لِمنظومات القِيَم الوافدة، ومُتلقٍّ سلبيٍّ لِما يُفرَضُ عليها من سُلُطاتٍ استكباريّة؟[2].

على الرّغم من إخفاق الكثير من المُفكّرين في الأُمّة الإسلاميّة في بناء الحلول النّاجعة لحركة الأمّة واستنهاضها، إلّا إنّهم قد أبْدَعوا في بيان الأزمة،

1- سورة البقرة، الآية 217.

2- راجع: عليّ الخامنئيّ، المشروع العامّ للفكر الإسلاميّ، لا ط، تهران، انتشارات انقلاب إسلامي، 1400هـ. وهو مِن أحسن ما كُتبَ في بيان هذه التّحدّيات والسّعي لتقديم الحلول لها.

ووصفِ المُعضلة، ومَدى عمق الهوّة والفجوة الحضاريّة[1]. في هذا السّياق، نرى أنَّ دراسات مالك بن نبيّ، التي عُرِفتْ بسلسلة «مشكلات الحضارة»، مليئة بهذه البيانات الكاشفة عن الأمراض في الأفكار والأشخاص، وحتّى الأشياء حسب تعبيره[2].

ولعلَّ المسيري كان الأقوى بينهم في كشف خيوط التّحيّز المنهجيّ[3] للمسلمين. فقد دعا إلى تفكيك العلاقة بين العقل المسلم ومنظومات المفهوميّة الغربيّة؛ لِيَتَسَنّى للمثقّف المُسلم أن يكتشف حقيقة التّبعيّة العقليّة والفكريّة والحضاريّة التي يعيشها في حياته[4]، وحتّى لا تستمرّ هَيمَنةُ النّماذج المَعرفيّة والحضاريّة علينا من قِبَل الغرب[5].

إنَّ هذا التّناقضَ الصّارخَ بين الإمكانات الجبّارة والواقع المُتداعي ليس قَدَرًا محتومًا، بل هو صرخةٌ تنتظرُ اليقظةَ، ودعوةٌ مُلحّة لمُراجعة الذّات، واستعادة الجُذور، واقتحام أسئلة التّجديد الجريئة. ففي أعماق هذا الانهيار، تكمنُ بُذور النّهضة، لكنّها تحتاج إلى عقولٍ ترفضُ الاستكانة، وقلوبٍ تشتعلُ إيمانًا، وإراداتٍ تصنعُ مِنَ القرآن صراطًا للاستقامة، وسبيلًا للتّحرُّر، لا مجرَّد ترانيمَ للاسترخاء، أو سور تُتلى للفوز بنعيم الجنّة، وتخدير العقول والقلوب عمّا يجري في الحياة الدّنيا مِن شقوة وبؤس ومَذلّة.

1- لا تقصد هذه الورقة أنْ تتجاهل الخطوات العمليّة التي تحقَّقت في مسير البناء الحضاريّ؛ لأنَّ الحركة النّهضويّة الإسلاميّة في القرنَيْن الماضيَيْن، وخصوصًا الثّورة الإسلاميّة بقيادة الإمام الخمينيّ، قد تركت آثارها العمليّة على الواقع العالميّ، وساهَمت في تغيير معادلات عميقة، وقدّمتْ مكاسبَ ومنجزات في اتّجاه البناء الحضاريّ، بالإضافة إلى مواجهة الأخطار المصيريّة التي شنَّتها القوى العالميّة ضِدّ الأمّة الإسلاميّة.

2- مالك بن نبيّ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ، ط1، دمشق، دار الفكر، 2002م، ص 106.

3- المسيريّ كان رائد العناية الفائقة بالمنهج والمنهجيّة في العالم العربيّ، في أقلِّ تقدير. ولا أعتقد أنَّ أحدًا تمكَّنَ من الولوج في عمق الإشكاليّة المنهجيّة بإرادة أصيلة غير منفعلة كما المسيري.
راجع: عبد الوهّاب المسيريّ، الثّقافة والمنهج، تحرير سوزان حرفي، ط2، دمشق، دار الفكر، 2010م، ص 225.

4- عبد الحليم أحمد عطيّة، عبد الوهّاب المسيريّ: دراسة في سيرته المعرفيّة ونقده لقيم الحداثة الغربيّة، ط1، قمّ، دار العتبة العبّاسيّة، 2019م، ص 23.

5- المصدر نفسه، ص 20.

هذه ليست دعوةً للرّثاء، بل هي صيحةُ إنذارٍ. فالأُمّة التي تتخلّى عن ميراثها الحضاريّ لتصيرَ ظلًّا للآخرين، لا تخسر ماضيها فحسب، بل تُضيِّعُ مستقبلَها، وتُسهِمُ في شلِّ الضّمير الإنسانيّ جمعاء. فالمعركةُ اليومَ معركةُ وجودٍ، تبدأ بإعادة تشغيل العقل، واقتلاع جذور التّبعيّة، واستئناف الحوار الخلّاق مع القرآن؛ ذلك الكتاب الذي لم يُنزَلْ ليُتلى على الأموات، بل ليُحرِّكَ الأحياءَ نحو فجرٍ جديدٍ. فهل نُدركُ حجمَ المسؤوليّة قبل أن تتحوّلَ الهُوّةُ إلى سَفحٍ لا قاعَ له؟!

بناءً عليه، ليس مِن الضّروريّ السّعي إلى تسويغ بسط الحديث عن «الاستقامة» في خضمّ هذه الصّراعات العالميّة العميقة، والفتن السّحيقة، والظّروف القاسية، لو اقتصرنا على مفهوم الاستقامة المتعارَف عليه؛ أي السّدّ في وجه زحف عدوانيّ يستهدف الكينونة الإسلاميّة. ولكن، ماذا لو ارتفعت بنا النّظرة إلى «الاستقامة» بمعناها القرآنيّ الوجوديّ الشّامل للأفكار والأديان، والأشخاص والأوطان، ذلك المعنى الذي لا يضاهيه أيّ لفظٍ ومصطلح؟

في هذا السّياق، يُقدّم القرآن الكريم نسقًا معرفيًّا غير مسبوق لاستجلاء مفهومَي المقاومة والاستقامة، مع مراعاة الفروق الجوهريّة بينهما. ومن ثمّ، لم يَعُدْ ثمّة ما يدعونا إلى إثبات ضرورة الانخراط في هذا السّعي العلميّ الجادّ في البَحْر القرآنيّ المعرفيّ. فالإشكاليّات التي تبدو بسيطة في الوهلة الأولى، تتّسم بِعمقٍ وتعقيدٍ وتركيبٍ يستوجب اتّباع نهجٍ منهجيّ معقّد ومركّب، إذا ما أردنا أن تكون الحلول والبدائل فعّالة ومؤثّرة.

مِنَ الاقتسام والعِضينيّة إلى النّسقيّة والرّؤية الأنطولوجيّة

نعلم جيّدًا أنَّ العنوان الرّئيس لهذه المقالة هو ليس المنهجيّة التّفسيريّة ومحاولات إصلاحيّة لها، وإنّما نحن بصدد الحديث عن «الاستقامة في الرّؤية القرآنيّة». على الرّغم من وضوح هذا الأمر، إلّا أنّنا مضطرّون نوعًا ما للحديث المنهجيّ، ولو باختصار وإيجاز، وذلك من باب المقدّمة لموضوعنا الأصليّ؛ لأنَّ فقدان التّوجّه التّفسيريّ الصّحيح لن يوصلنا إلى اكتشاف حقائق المعاني القرآنيّة. وتاليًا، لن نلتقي مع القارئ في خضمّ المناهج التّقليديّة في فهم جغرافيا المفاهيم ودلالاتها في القرآن الكريم.

إنَّ المناهج الاقتساميّة[1] في التّفسير، لن تُولّد إلّا أنظمة معنويّة غير مكتملة، وموجة هائلة من سوء الفهم الدّينيّ، سوف تتسبّب بظهور أفكار تحت الغطاء القرآنيّ، لكنّها مخترقة بالانحراف. وهكذا، فإنَّ تبعات فقدان الرّؤية الأنطولوجيّة أو الوجوديّة للكلمات القرآنيّة تؤدّي إلى إخفاقها في إيصال الرّسالة الحقيقيّة لها إلى النّاس.

إنَّ تعقيدات الواقع اليوم على الصّعيد الحضاريَ، وضرورات المراجعة والتّجديد، تفرض علينا التّوقّف طويلًا عند فكرة التّفسير والفهم الصّحيح الكاشف عن حقائق الآيات القرآنيّة. وعلى عكس التّيّارات التّفسيريّة التّقليديّة، نحن في أمسّ الحاجة إلى السّعي لترشيد الفهم باتّجاه فاعليّته في بناء الواقع، وتجديد الهَياكل الحَضاريّة الواقعيّة لها في ضوء مرجعيّة القرآن الكريم. طبعًا، هدف كهذا يَستوجبُ تمكينَ العقل الإسلاميّ المُعاصر من شَجاعة التّجديد الاجتهاديّ، تحقيقًا للمقاصد القرآنيّة في الاتّجاه الاجتماعيّ الشّامل.

ولعلّ نصّ الآية التّسعين، والتي تليها مِن سورة الحجر: ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾[2]، من أبرز النّصوص التي تشير إلى هذه الحقيقة في القرآن الكريم، فهما تُبرزان مؤشّرًا منهجيًّا بالغَ الخطورة بكلّ وضوح وصراحة، على الرّغم من تَوافُر القرآن الكريم على عددٍ كبير من آيات التي تشير إلى ذلك، ألَا وهو عنصر «الاقتسام المنهجيّ» في عمليّة التّفسير للقرآن الكريم وفهمه. ذلكَ أنّ «التّفسير الاقتساميّ» و«المُفسِّر المُقتسِم» هو الذي يُخلّ بعمليّة التّفسير ومنظومة الدّلالات القرآنيّة باقتسامه لمداليل النّصّ القرآنيّ وتجزئتها.

بناءً عليه، تُشير الآيتان من دون أدنى شكّ إلى ما في التّفسير الاقتساميّ والعِضينيّ من ويلات على الفكرة وتطبيقاتها، لو نظرنا إلى عمق السّياق الصّغير والكبير في السّورة. وفي ضوء ما نفهمه من القرآن الكريم، تعتمد القراءة النَّسَقيّة للقرآن على النّظر إليه كنظام مُتكامل مُترابط العناصر والأجزاء، لا مجرّد نُصوص متفرّقة أو منفصلة بعضها عن بعض. وكلمة النَّسَق، هنا، تعني النّظام أو البنيَة أو النّسيج الكلِّيّ. وتاليًا، فالقراءة النّسقيّة هي محاولة لفهم القرآن الكريم بوصفه

1- إشارة إلى الآية 90 من سورة الحجر: ﴿ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴾.

2- سورة الحجر، الآيتان 90-91.

خِطابًا ذا بناء شُموليّ مُتكامل تَتَناسقُ فيه الأفكارُ والمَضامين والمواضيع والقصص والتّشريعات.

واللّافت في فهم سياق هذه الآيات هو أنّ المُحاولات التي كانت تَجري في التّاريخ في التّعامل الاقتساميّ والعِضينيّ مع الكُتُب السّماويّة، لم تكن بريئة أو ناشئةً من الضّعف التّفسيريّ، أو ما شابهه، أو الجهل بمستلزمات الكشف عن شموليّة الحقيقة في النّصوص الإلهيّة، بل كانت في أغلب الأوقات تعكس إرادات خبيثة تستهدف فاعليّة الوحي وتسعى لإفشالها، بعد إدراكهم لمركزيّة الوحي في حركة الأنبياء وصوغ الاستنهاض الحضاريّ للأُمَّة الإلهيّة اعتمادًا عليه.

ولعلّ الآية: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] خير شاهد على سوء القصد هذا، وسعيهم الحثيث في الإخلال بوحدة النّصّ وانسجامه الدّاخليّ، عبر التّحريف والتّشويه لهيكله المتناغم المتوازن المعقول. وهي عمليّة مقصودة محسوبة منهم؛ لأنّهم كانوا يلجأون إلى السّعي لتفكيك بنية النّصّ وتَعضينه ﴿بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

هذا يعني أنّها عمليّة مخطَّطَة تستهدف النّهوض الشّامل للأُمّة، التي تعتمد في حراكتها الحضاريّة على الوحي وعقلانيّته وفاعليّته، وإلى ذلك تشير الآية الأخرى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾[2]. خصوصًا، لو تأمّلنا فيها برؤية منهجيّة أبستمولوجيّة؛ لأنّ كلمة «طَعْنًا» في الدّين هنا، من هذه النّاحية، ذات دلالة خطيرة، وهي أنَّ التّعامل التّحريفيّ مع النّصّ القرآنيّ، مثلًا، يُسبّبُ الطّعنَ في الدّين.

ومن الواضح جدًّا، أنّ المعرفة المطعون فيها من الدّين تَسقط عن الفاعليّة والقوّة التّطبيقيّة والعقلانيّة التّنافسيّة الفلسفيّة والعمليّة. والتّحذير الإلهيّ مِنَ الشّرك وعواقبه المُدمّرة في الآية التّالية المتّصلة بها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[3]، يمكن

1- سورة البقرة، الآية 75.

2- سورة النّساء، الآية 46.

3- سورة النّساء، الآية 48.

أن يشمل الجانب المعرفيّ المنهجيّ أيضًا؛ لأنّ الشّرك ظاهرة تطال حركة الإدراك والوعي والعلم، ومناهج الوصول إلى المعرفة أيضًا.

يعتمد المشرك عندما يرجع إلى النّصوص الإلهيّة على التّحريف والطّمس والتّعامل العِضينيّ، والنّتيجة سوف تَتَبلور في أخذه ببعض وتركه لِبعض؛ أي إيمانه ببعض وكفره ببعض[1]. والمعرفة النّاشئة من هذا التّعامل هي معرفة شِركيّة فاقدة لأيّ توازن وعقلانيّة وفاعليّة.

بناءً على ذلك، نلحظ أنَّ مِنَ السّمات البارزة للنّسقيّة هذه، هو التّرابط الموضوعيّ بين جميع آيات وسُور القرآن الكريم. وعليه، يشمل البحث، في ضوء ذلك، العلاقات بين الآيات والسّور، وفهم اتّساقها مع النّسق العامّ للقرآن. كذلك، نجد أنَّ ظاهرة التّجزئة والتّفكيك، التي نراها في مناهج التّفاسير غير النسقيّة، تعزل الآيات والسّور بعضها عن بعض، وتُلغي الفاعليّة الحقيقيّة للقرآن في معالجة الواقع؛ وذلك لأنّ الواقع محكوم بأعلى مراتب العقلانيّة والمنطق، وخاضع لسنن علميّة صارمة تتعارض مع منطق النّقل والتّعبُّد المحض.

من جهة ثالثة، يمكن التّأكيد على أنَّ المنهج النّسقيّ في تفسير القرآن وفهمه، يساعد على كشف البنيَة الكلّيّة لِهَياكِل المعنى القرآنيّ الشّامل، وهي الطّبقة العُليا مِن المعاني والمَعارف التي تَحْكُمُ العلومَ الدّينيّة كلَّها، مثل: الفقه والعقيدة والأخلاق. وعليه، وفي ضوء آليّات التّنسيق التّفسيريّ، تُهيمن على هذه العلوم مرجعيّةُ المعرفة الكلّيّة القرآنيّة.

وأمّا العلاقة بين كلّ ما سبق والمسألة الحضاريّة، فهي واضحة هنا في ظلِّ الحديث عن النَّسَقيّة؛ لأنّ الحضارة نفسَها هي ظاهرة نَسَقيّة، أي أنّ الفعلَ الحضاريّ لا بُدَّ من أن يكون فعلًا نسقيًّا منظوميًّا مُترابطًا. ولعلَّ السّبب في ذلك يعود إلى وجود مَسارٍ من الوحدة المتكاملة يسود كافّة أبعاد الحضارة بالرّؤية الواقعيّة. فلا يمكن تصوّرُ الانفكاك والتَّشَظِّي في المنهج المعرفيّ الذي يهدف إلى الكشف عن المنطق التّنظيريّ الحاكم على ذلك كلّه.

من هذا المنطلق، يمكن ترسيخ هذه الحقيقة القاضية بأنَّ الفهم النَّسَقيّ، المُرتكز على الوعي بالمنظومة المتكاملة للمفاهيم والرّؤية الشّاملة وطبقات المعنى

1- ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ﴾ (سورة البقرة، الآية 85).

في النّصّ الأساسيّ، هو مِن لوازم الاستنباط الاجتهاديّ للحضارة. كما أنَّ الرّؤية الكونيّة النّاتجة عن الفهم النَّسَقيّ تتفاعل مع الرّؤية التّكوينيّة النّاتجة عن القراءة الأنطولوجيّة، وهما مبدآن أساسيّان للتّعامل النّظريّ والعمليّ مع الفكرة الحضاريّة. وعلى هذا الأساس، تسعى هذه الدّراسة للتّعامل مع فكرة الاستقامة وعلاقتها بالنّسق والإطار الحضاريَّيْن.

الاستقامة في ضوء المرجعيّة القرآنيّة

إنَّ المرجعيّة المعرفيّة الحقيقيّة للقرآن حاسمة للأنظمة المعرفيّة على الإطلاق[1]؛ لأنّ القرآن يَختزنُ الرُّؤى الكُلّيّة الشّاملة لِقواعد الوجود وسُنَنِه. أمّا القوانين التّفصيليّة في العالم، فقد أُوكِلَتْ إلى العلوم التي تعتمد على العقل والتّجربة في الكشف[2].

وللحديث عن الاستقامة، بدايةً، ينبغي لنا الإلفات إلى أنَّ التّأمّل في آيات سورة الفاتحة يُظهِرُ عُمقها المعرِفيّ، على الرّغم من قِصَرها وقِلّة آياتها. فهي سورةٌ شاملة تجمع خلاصة معارف القرآن الكريم في كلماتٍ قليلة في مقدارها الكمّيّ. بعبارةٍ أُخرى، لو أردْنا تلخيص معاني القرآن في بِضعةِ أسطُرٍ مُضيئة شاملة للحقائق، لكانت سورةُ الفاتحة خَيرَ تمثيلٍ لذلك. وما يُميِّزُ هذه السّورة بشكلٍ خاصّ هو قدرتها على التّعبير عن جَوهر الإنسان والكون والدّين، ممّا يجعلها من أبلَغ التّعابير الفكريّة في هذا المَجال. أمّا بقيّةُ سُوَرِ القرآن، فهي بمثابة شرحٍ وتفصيلٍ لهذه الصّورة المُعجِزة؛ إذ تَظهَرُ الفاتحةُ والقرآنُ كحقيقةٍ واحدةٍ تَتفاوتُ فيهما الرّسالةُ البيانيّة بين الإيجازِ والتّفصيل.

1- محمّد عليّ ميرزائيّ، فلسفة مرجعيّة القرآن المعرفيّة في إنتاج المعرفة الدّينيّة، المقدّمة، ترجمة دلال عبّاس، لا ط، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، 2007م.

2- نختلف مع التّيّارات التي تُحيل الأسئلة العلميّة التّفصيليّة للعلوم الطّبيعيّة والإنسانيّة إلى القرآن والنّصوص الدّينيّة؛ لأنّها لا تؤمن بأيّ تمايز بين الأدوار في الدّين، والعلوم البشريّة، والعلوم العقليّة؛ لأنّنا نعتقد أنَّ العلوم الطّبيعيّة والإنسانيّة بمثابة بناء من المفروض أن يُبنى على الأساسيّات الدّينيّة، ولكنّ الهياكل الأخرى بعد ذلك تُشيَّد وتُبنى بتوظيف العقل والعلوم البشريّة؛ لأنّ طبيعة حركة الإنسان في هذا العالم تستوجب الانطلاق من الأمور الكلّيّة والقضايا الميتافيزيقيّة، ولو كان الإنسان لا ينتمي إلى الدّين والإلهيّات.

وفي قلب سورة الفاتحة يَبرُزُ دعاءٌ واحد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[1]. هذا الدّعاء هو الأكثر شمولًا ومركزيةً في القرآن الكريم. وهذا يعني أنّنا لو تتبّعنا تفصيل «الاستقامة» في الآيات الأخرى، لرأينا أنّها تُغطّي على نسبة هائلة من مجمل آيات القرآن الكريم. بهذه المناسبة، تخيّلوا المساحةَ الكبيرةَ التي تَحَيّزها «الصّبر»، أو شَغَلَها «الجهاد» و«القتال» في الآيات القرآنيّة، وهي عناوين قليلة جدًّا قياسًا بالمئات مِنَ العناوين العمليّة والنّظريّة التي أتتْ تحت مفهوم الاستقامة، وارتبطت بها ارتباطًا منهجيًّا ونسقيًّا وثيقًا.

وبما أنَّ الفاتحة تحتلّ هذه المكانةَ الكبيرة في تاريخِ الوحي وكُتب الأنبياء، فإنَّ هذا الدّعاء يَشمَلُ في معناه جميع القِيَم الأخلاقيّة، ومراتبَ الخير والتّقوى. هذا التفسيرُ يُوضِّح الموقعَ الفريدَ لهذا الدّعاءِ في السّورة؛ إذ يعكسُ لَفظُ «الاستقامةِ» دلالاتٍ لا متناهية، كما هو مُتَبيّن في هذه الأوراق سابقًا ولاحقًا.

وفي الإطار الحضاريّ، إذا أردنا ألّا تتورّط الحضارة في مزلقة الغواية[2]، لا بُدّ لها من أن تستقيم وتتّسم بشروط الاستقامة القرآنيّة. فالإنسانَ الغاوي لن يُنتج إلّا الحضارة الغاوية المُشتبكة مع السّنن الإلهيّة، والسّاقطة عاجلًا أم آجلًا. ومن أغرب ما قرأت في تفسير الصّراط المستقيم، هو ما قاله العلّامة الطّباطبائيّ (رضوان اللّه عليه) في تفسير سورة الحمد:

«وخامسها: أنّ مزيّة أصحاب الصّراط المستقيم على غيرهم، وكذلك صراطهم على سبيل غيرهم، إنّما هو في العلم لا العمل. فلهم مِنَ العلم بمقام ربّهم ما ليس لغيرهم، إذ تبيَّن ممّا مرَّ: أنَّ العمل التّامّ موجود في بعض السّبل التي دون صراطهم، فلا يبقى لمزيّتهم إلّا العلم. أمَّا ما هذا العلم؟ وكيف هو؟ فنبحث عنه إنْ شاء اللّه في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾[3]. ويُشعر بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ

1- سورة الفاتحة، الآية 6.

2- إشارة إلى سورة الحجر، الآيات 39-42: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾.

3- سورة الرّعد، الآية 17.

دَرَجَـٰتٍ ﴾[1]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾[2]. فالذي يصعد إليه تعالى هو الكَلِم الطّيّب وهو الاعتقاد والعلم. أمَّا العمل الصّالح، فشأنه رفع الكَلِم الطّيّب والإمداد دون الصّعود إليه تعالى، وسيأتي تمام البيان في البحث عن الآية»[3].

يبدو أنَّ الاستقامة هي حالة ووضعيّة مُعيّنة للشّخص أو الفكر، في هذه الحالة تحظى بالقوّة على الصّمود والمقاومة والبقاء مع الجدارة والكيفيّة العالية، والحفاظ على مسار الرّشد والرّقيّ والكمال. إنَّ أصل الاستقامة مِنَ «القيام» و«القِوام»، والمستقيم من الطّريق والفكر والإنسان يبقى قائمًا ما دامت الاستقامة. أمَّا القول القاطع للعلّامة طباطبائي، بأنّ امتياز أهل الصّراط المستقيم هو امتياز علميّ نظريّ، لا عمليّ، فهو محلّ التّأمّل الشّديد.

علاوة على ذلك، إنّنا في سورة الفاتحة نسألُ اللّهَ تعالى أن يهدينا إلى صراط الذين أنعمَ اللّهُ عليهم. وهل الإنعام الإلهيّ على الأنبياء والشّهداء والصّدِّيقين مِن عباده الصالحين هو حصريًّا مِن جنس النّظر والعلم؟ أو في آية أخرى، حينما نقرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾[4]. هل الاستقامة هنا، هي علم أو عمل، نظر أم واقع وجوديّ؟

بناءً عليه، كيف يمكننا القول إنَّ ميزة أصحاب الصّراط المستقيم هي مزيّة نظريّة علميّة بحتة وليست عمليّة؟ إنَّ سعيَنا في هذه الأوراق مُتّجه لِعَكس ما يقوله صاحب الميزان؛ لأنّنا بالتّأمّل في آيات الاستقامة، نجد أنَّ الاستقامة هي حالة وجوديّة قبل أن تكون حالة نظريّة، تُكرّس مَزيّة العلم والمعرفة لِمَن عليها. أضِف إلى ذلك، أنّ كلمة «الصّراط» تحمل شحنة دلاليّة عمليّة أكثر؛ لأنّها تحكي واقعًا خارجيًّا، لا حالة إدراكيّة ذهنيّة. واللّه العالِم.

1- سورة المجادلة، الآية 11.

2- سورة فاطر، الآية 10.

3- محمّد حسين الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، لا ط، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، 2007م، ج 1، ص 37.

4- سورة فصّلت، الآية 30.

وفي النّطاق الأوسع من سورة الفاتحة، ثمّة حضور شبَكيّ كبير مِنَ الكلمات والسّياقات والمفاهيم المتّصلة بالاستقامة في جميع السّور القرآنيّة. الملاحظة اللّغويّة الأكثر أهمّيّة في «الاستقامة» تتعلّق بجذرها: «ق و م»، والمشتقّات المترامية والكثيرة لهذه الثّلاثيّة. كما أنّ الاستقامة في سورة الحمد شاملة، تُغطّي على جميع التّوظيفات المُنتشرة لها في القرآن الكريم.

وطالما أنّنا في سياق البيان عن الفهم الحضاريّ للاستقامة، فلا بُدَّ، بدايةً، من الإشارة إلى أنَّ كلمة «القوم» في القرآن الكريم لها صلة دلاليّة بمعنى «القيام» و«القِوام». لذلك، يمكننا تسويغ الاستشهاد اللّافت بها في القرآن دالًّا على أنّ قيمة «القوم» يكمن في ما لو حَظي بمُقوّمات القيام والقِوام، وإلّا فإطلاق القوم عليه استعمال مجازيّ. وهنا، يقترب المعنى من المستوى السّننيّ؛ أي أنّه صادق على أيّ قوم، وأنّ القوم هي حالة جامعة من النّاس تحت غطاء منظومة ثقافيّة وفكريّة وسياسيّة متكاملة.

وكذلك، يتّصل الإنسان في «قيامه» و«قِوامه» بِقَومِه. وذلك، طبعًا، في حال كان الواقع القوميّ متحقّقًا. وعليه، فإنّ «الاستقامة» هي من الشّؤون الدلاليّة لـ«القوم». ينبغي لنا أن نضيف إلى ذلك كثرة الخطابات القرآنية بـ«يا قوم»، و هو خطاب لافت من النّاحية الحضاريّة؛ أي أنّ المخاطب للأنبياء وجميع الرّسالات السّماويّة هنا، لم يكن أفرادًا، وإنّما هيكليّة اجتماعيّة وكتلة بشريّة متكاملة، منسجمة ومتضامنة نوعًا ما، تُدعى «القوم».

إنَّ الآيات المشيرة إلى ظواهر، مثل: الظّلم[1]، الإجرام[2]، الكُفر[3]، الإفساد[4]، العُلوّ[5]،

1- ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران، الآية 86).

2- ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية 133).

3- ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 250).

4- ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (سورة العنكبوت، الآية 30).

5- ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴾ (سورة المؤمنون، الآية 46).

والفِسق[1]، وكذلك: الإيمان[2]، الصّلاح[3]، العلم[4]، التّفكّر[5]، العقل[6]، الشّكر[7]، واليقين[8]؛ بوصفها أوصافًا لكلمة «القوم»؛ لهي خير شاهد على أنَّ هذه الظّواهر الأساسيّة جدًّا تَظهر في صورة التَّفاعُل القوميّ والاجتماعيّ.

والملاحظة المحوريّة هنا، هي أنّها وُصفت بها الأقوام؛ أي أنّ مسار تَشَكّلها يمرّ عبر الحالة القوميّة والمجتمعيّة. وعليه، يمكننا التّأكيد أنَّ الإطار الحضاريّ هو المُنتِج لها؛ إذ إنّه من المعقول التّفكير في التّعامل معها من هذا المنطلق الحضاريّ الواسع والشّامل.

وهذه لفتة مهمّة تقتضي تركيزًا بحثيًّا مستقلًّا في فرصة أخرى، ومثال على ذلك هو قوله تعالى في سورة هود: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾[9]. ويبدو أنَّ الآية تتحدّث عن الخيانة في الميزان والمكيال، بوصفها ظاهرة اجتماعيّة منتشرة، وليست مُخالَفات فرديّة منقطعةً عن الإرادة الجمعيّة.

كذلك، نلحظ أنَّ القسط والعدل، وهما بمثابة القِيمةِ المركزيّة في القرآن الكريم،

1- ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (سورة المائدة، الآية 25).

2- ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية 52).

3- ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (سورة المائدة، الآية 84).

4- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ (سورة الأنعام، الآية 97).

5- ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة يونس، الآية 24).

6- ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ (سورة النّحل، الآية 12).

7- ﴿ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية 58).

8- ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 118).

9- سورة هود، الآية 85.

يُعَدّان السّبب الرّئيس لـ«قيام» النّاس و«قِوامهم»، كما أشار إليهما القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

تدلّ هذه الآية على مُعطىً حضاريّ هائل الأهمّيّة؛ لأنّها تُشير إلى أنَّ «قيام النّاس» مطلقًا مَنوط بمسألة «القِسط»، الذي يُمثّل الفلسفة المحوريّة والمقصد الأعلى لِبعثة الأنبياء، وهو أساسُ الوحي في جميع الرّسالات السّماويّة. ولعلّ الوصفَيْن: «قويٌّ عزيزٌ» في آخر الآية، وإنْ كانا في شأن اللّه تعالى، إلّا أنّهما قد يُغطّيان على مسار الآية جميعها، بما في ذلك القيام بالقسط، لو تدبّرنا فيها. وعليه، فقوّة الأقوام والأُمَم وعِزّتها مرتبطتان بقدر ما يتحقّق فيها من القسط والعدالة.

على ذلك، يمكن القول إنَّ الصّراط المستقيم هو صراط القسط والعدل من ناحية، والاستقامة هي وصف الأمر الذي تحقّق فيه القسط والعدل. وكذلك، هي صراطُ العزّة والقوّة؛ فكلّ مستقيم هو عادل، وفي الوقت نفسه هو قويّ وعزيز.

وسورة الحجرات ضمن مجموعة شديدة التّماسك والانسجام مِن الآيات الكريمة، في الاجتماع المعرفيّ والوجوديّ القرآنيّ تتحدَّث عن هذه الحقيقة؛ أي المنطلق القوميّ والاجتماعيّ للسّلوكيّات الانحرافيّة.

ومن ذلك الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2].

وفي آية أخرى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3]، يتبيَّن أنَّ الإنفاق لو خرج عن القسط والعدل والاعتدال، فإنَّ النّتيجة تكون كارثيّة على القِوام والاستقامة. وثمّة آيات أخرى ربطت قيام النّاس بالأموال التي يملكون، فالفقر المطلق لا ينتج قيامًا، وإنّما قعودًا.

وفي السّياق نفسه، يمكن الحديث عن كلمة «قوّام» في سورة النّساء وعلاقتها

1- سورة الحديد، الآية 25.

2- سورة الحجرات، الآية 11.

3- سورة الفرقان، الآية 67.

بالإنفاق، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾[1]. تنعكس في الآية الكريمة أفكار عظيمة الأهميّة حول حقّ المرأة في أن تكون قائمةً ذات قوّة وتمكّن للقيام بواجباتها. وهذا القيام يتحقَّق لها في ما لو أنفقَ عليها الرّجلُ وبَقي إلى جانبها، بفضل وجوده الملائم لهذه المهمّة. وهذا دليل واضح على أنَّ رسالة المرأة في البناء الشّامل للإنسان تستحقّ أن يكون الرّجل قوّامًا لها.

ومَن يلقي نظرة عابرة على جميع الآيات الصّريحة في بيان الاستقامة وصراطها، سوف يكتشف بوضوح أنّ الاستقامة هي الصّفة العامّة الشّاملة والكلّيّة للعبوديّة والتّديّن، بالطّريقة التي تضمن للسّعادة والكمال والرّشد في الحياة. في الواقع، إنَّ وصف الاستقامة في القرآن الكريم هو وصف للدّين الإلهيّ، وهو وصف لصراط اللّه نفسه سبحانه وتعالى.

دعونا نلقي نظرة على الصّياغات الشّاملة لبعض تلك الآيات، وهي:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[2].

من سياق الآية الكريمة، يبدو أنّ الإقرار بربوبيّة اللّه المطلقة في الحياة يحتاج إلى الاستقامة عليه؛ أي أنّ الاعتقاد بأنَّه تعالى هو ربّ العالمين يستوجب نظامًا سلوكيًّا محدّدًا؛ لأنَّ هذا المعتقد سوف يقلب جميع مناحي حياة المؤمن والبقاء عليه، وصدق دعواه يقتضي الاستقامة بأشمل معناها. إنَّ السّنن الإلهيّة المبثوثة في الحياة تحسم الأمر لصالح أهل الإيمان إنْ بقوا على الصّراط واستقاموا عليه، ولم يستسلموا أو يهنوا ويضعفوا.

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾[3].

نظرًا لأنَّ التّحدِّيات في وجه المؤمن كبيرة، وأنَّ ضغوطًا وعقوبات هائلة في الشّدّة والأذى قد تُحاك ضِدّه، أو ضِدّ الأُمّة المؤمنة، فلا بُدَّ من الاستقامة لكسب العاقبة والفوز بالنّهاية المظفرة. لكنَّ أغلب النّاس لا يقاومون ولا يستقيمون، فينفضّ عقدهم الإيمانيّ مِن وسط الطّريقة بعد مواجهة الضّغوط والتّحدّيات. وهنا، يُحسم

1- سورة النّساء، الآية 34.

2- سورة الأحقاف، الآية 13.

3- سورة الجنّ، الآية 16.

مصير الأُمم والحضارات أيضًا؛ فإن استقامت الحضارة على الطّريقة، فسوف ستعيش وتحيا بالماء الغدق، وإلّا فإنَّ النّتيجة ستكون باتّجاه الاضمحلال والزّوال.

من المعروف عن المؤرّخ البريطانيّ «أرنولد توينبي» (Arnold Toynbee) مقولته في منطق العلاقة بين التّحدّي والاستجابة[1]، ودور ذلك في مصير الحضارات. فقد دلّت نظريّته على أنَّ الحضارات بقدر ما حظيت بالقوّة في مواجهة التّحدِّيات الكبرى، وامتلكت القدرة على الاستجابة لها بما يناسب ذلك، بالقدر نفسه يُكتب لها البقاء والفعاليّة[2].

المؤسف حقًّا، أنّنا نحن المسلمين، لا نجد بيننا أعمالًا جادَّة في التّأمّلات العميقة حول النّظريّات القرآنيّة في هذا الأمر. فعلى الرّغمَ من أنّ فكرة «الاستقامة الحضاريّة» هائلة الأهمّيّة والتّأثير، وذات البنية المعقّدة والمركّبة، فإنّنا نلحظ فيها أضعاف أضعاف ما في غيرها مِنَ النّظريّات، لو تَدَبّرنا في آيات القرآن الكريم. ليس ما قاله «أرنولد توينبي»، بل ما قاله ابن خلدون المسلم أيضًا في هذه النّاحية، قياسًا مع الآيات القرآنيّة حول الحضارات، نشوءًا وصعودًا أو نزولًا وزوالًا، هو لا شيء تقريبًا. وهذا خير شاهد على أنّ القرآن الكريم مهجور بين كبار أهله!

وهذا مالك بن نبيّ المفكّر الكبير في مشكلات الحضارة، على الرّغم من أنّه بذل جهدًا أصيلًا ومخلصًا في هذه المواضيع ذات الصّلة بمسارات الحضارة، إلّا أنّه مُقلّ جدًّا في التّأمّل في الآيات القرآنيّة، ويغلب على أبحاثه الحضاريّة الاستلهام والاقتباس من المؤرّخين الأوروبّيّين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾[3].

هنا الآية تشير إلى علاقة مهمّة بين العبادة والاستقامة. وهذا فتح عظيم للمعرفة الدّينيّة العميقة؛ لأنّها تشير إلى فهم مختلف للعبادة عمَّا هو راسخ في أذهاننا. فالآية ترى أنّ المعرفة باللّه تعالى والاعتقاد بربوبيّته الشّاملة الكاملة في الوجود،

1- زياد عبد الكريم النّجم، الحضارة الإسلاميّة في ضوء نظريّة التّحدّي والاستجابة، ط1، دمشق، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 2007م، ص 51.

2- حسينعلي نوذري، فلسفة تاريخ، ص 59-60؛ الكساندر پيتريم سوروكين، نظريه هاى جامعه شناسى و فلسفه هاى نوين تاريخ، ترجمه اسد الله نوروزى، تهران، انتشارات حق شناس، 1377هـ.ش، ص 142-143.

3- سورة آل عمران، الآية 51.

ومن ثمّ سريان ذلك كلّه في جميع جوانب السّلوك الإنسانيّ في الحياة، والذي يُدعى هنا بالعبادة أو العبوديّة، يؤدّي إلى الاهتداء إلى الصّراط المستقيم، وهو ضامن لتحقّق الاستقامة في المجتمع الإنسانيّ على مختلف مستوياته.

إنَّ الآيات الكريمة التّالية، ولو أردنا بيانَ نقطة منهجيّة واحدة، وجانبًا واحدًا مِن دلالات كلّ منها، مع العلم أنَّ مثلها في القرآن الكريم يبلغ عشرة أضعاف، لاقتضى ذلك ساعاتٍ وأوراقًا كثيرة؛ لأنّ كلّ آية من هذه الآيات تفتح آفاقًا كبيرة جدًّا في فهم الاستقامة وأثرها على الحياة الإنسانيّة بجميع مراتبها وحدودها.

- ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[1].
- ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾[2].
- ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[3].
- ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[4].

لمعات قرآنيّة في صلة الصّبر والاستقامة

إنّ طلبَ الهداية إلى الصّراط المستقيم يُمثّل تَحدّيًا عظيمًا؛ لأنّه يُجسّد باختصار كلَّ ما يُواجه الإنسان في حياته بمختلف مستوياتها ومجالاتها. فالاستقامةُ هنا ليست مجرّد قيمة أخلاقيّة، بل هي الإطار الشّامل الذي يَضمّ جميعَ القيم اللّازمة لاستقامة الإنسان في الحياة، والمعرفة، والوجود.

وفي سياق شموليّة مداليل الاستقامة في البُعد الأخلاقيّ، وهو ما تغطّيه آلاف الآيات القرآنيّة تبيينًا، وتأكيدًا، وتشجيعًا بالوعد والوعيد، والإنذار والتّبشير، نشير

1- سورة المائدة، الآية 16.

2- سورة الأنعام، الآية 126.

3- سورة هود، الآية 112.

4- سورة الشّورى، الآية 15.

إلى أقرب مصداق أخلاقيّ من مفهوم الاستقامة، وهو الصّبر. إذْ، كيف يمكن أن يُقاوم الإنسانُ وأنْ تستقيم حياته من دون الصّبر؟ الاستقامةُ، والمقاومةُ، والصّبرُ ثلاثيٌّ متشابكُ العلاقةِ والصّلةِ، تُشكّلُ شبكةً مفهوميّةً وتطبيقيّةً هائلةَ الأهمِّيّةِ في قواعدِ الانتصارِ والهزيمةِ قرآنيًّا. وبفضلِ هذا الارتباطِ الوثيقِ، تُعدّ هذه العناصرُ أساسًا لفهمِ ديناميكيّاتِ الحراكِ الإنسانيِّ في مواجهةِ التّحدّياتِ والعوائقِ الواقعيّةِ.

ولتوضيحِ هذا التّكاملِ، يمكنُ الإشارةُ إلى بعضِ مَحاورِ هذه الشّبكةِ الدّلاليّةِ الفاعلةِ:

أوّلًا: الصّبرُ والعزيمةُ؛ لكي يستقيمَ الإنسانُ في أمرِه، فإنّه بحاجةٍ إلى عزيمةٍ قويّةٍ ومحكمةٍ.

وفي هذا السّياقِ، يَبرزُ الصّبرُ كمفتاحٍ أساسيٍّ؛ إذ يُجنّبُ الإنسانَ القراراتِ أو ردودَ الفعلِ الانفعاليةَ العاجلةَ، التي تفتقرُ إلى فهمِ الحقائقِ بنظرةٍ بعيدةِ المدى. وقد جاء في القرآنِ الكريم: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1]. هذه الآيةُ تُبرزُ أنَّ الصبرَ ليسَ مجردَ فضيلةٍ، بل هو عاملٌ مصيريٌّ في تقويةِ الإرادةِ والعزيمةِ. وعليه، فإنَّ فاقدَ الصّبرِ لا يستقيمُ أمرُهُ، ولا يستطيعُ مواجهةَ التّحدِّياتِ بثباتٍ. وقد أوضحَ العلماءُ أنَّ الصّبرَ هو تهيئةُ النّفسِ وتوطينُها على المثابرةِ والجَلَدِ في العملِ، ممَّا يجعلُهُ مفتاحًا للاستقامةِ.

ثانيًا: تربطُ آيةٌ أخرى بينَ عزيمةِ الأنبياءِ العظامِ وصبرِهم، كما في قولِهِ تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾[2].

من العجيبِ، أنَّ الصّبرَ ينطوي على مفهومٍ استراتيجيٍّ بالغِ الأهمِّيّةِ، وهو تحييدُ الانفعالاتِ، كما يتّضحُ من الأمرِ ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل ﴾. فالصّابرُ يُنجزُ ما عليهِ مؤمنًا بأنَّ النّتيجةَ ستأتي وفقَ السّننِ الإلهيّةِ، مُركِّزًا على التّحضيرِ والاستعدادِ للمعركةِ بدلًا من الاستعجالِ لمشاهدةِ النّتائجِ. وبذلكَ، يُسهمُ الصّبرُ في ضبطِ الحالاتِ النّفسيّةِ التي قد تُخلُّ بمنطقِ الفعلِ الإلهيِّ وجريانِ سننِهِ الثّابتةِ.

ثالثًا: يُبرزُ القرآنُ العلاقةَ بينَ الصّبرِ والانتصارِ في مواجهةِ الأعداءِ، كما في قولِهِ: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾[3].

1- سورة الشّورى، الآية 43.

2- سورة الأحقاف، الآية 35.

3- سورة آل عمران، الآية 120.

منطقُ سلوكِ الأعداءِ، الخاضعُ للعجلةِ والرّؤيةِ القصيرةِ المدى، يتماشى مع فقدانِ البصيرةِ والصّبرِ، ممّا يجعلُهم عاجزينَ عن فهمِ قواعدِ النّصرةِ الإلهيّةِ وجريانِ سننِها. ونتيجة لذلك، لا يستطيعونَ إعاقةَ نصرِ المؤمنينَ. فالصّبرُ، إلى جانبِ التّحضيرِ المسبقِ والإعدادِ اللّازمِ، يضمنُ تجنّبَ مزالقِ الفسقِ والانفعالاتِ الشّيطانيّةِ، ممَّا يُفضي إلى الانتصارِ وفقَ السّننِ الإلهيّةِ.

علاوةً على ذلكَ، فإنَّ الصّبرَ موصولٌ بـ«البصيرةِ الشّاملةِ»، التي تستندُ إلى المكرِ الإلهيِّ المرتكزِ على السّننِ الوجوديّةِ الثّابتةِ. أمّا مكرُ العدوِّ الدّنيويِّ والمادّيِّ، فهوَ محدودٌ وغيرُ فاعلٍ قياسًا مع هذا المكرِ الإلهيِّ. هكذا، تتجلّى فعّاليّةُ الاستقامةِ، بالتّكاملِ مع الصّبرِ والمقاومةِ، في حسمِ المعاركِ، وفصلِ المواجهاتِ، ودحْرِ التّهديداتِ، والتّعاملِ المظفَّرِ مع التّحدّياتِ في جميعِ ميادينِ الحياةِ.

وبالمناسبة، من الضّروريّ هنا الإشارة إلى الرّؤية الحضاريّة في معالجة التّحدّيات الواقعيّة التي تقتضي الصّبر والاستقامة. فالخطاب الحضاريّ في فهم الأسُس الأخلاقيّة وأصولها، مثل الاستقامة، ظلَّ غائبًا إلى حدٍّ كبير. ولذلك، يبدو غريبًا نسبيًّا أن نتحدّث عن «الحضارة الصّابرة»، أو «الحضارة الواعية»، أو «الحضارة المستقيمة»، و«الاستقامة الحضاريّة».

لقد كان الوعي الإسلاميّ، أو القرآنيّ في الأُمّة، مَحصورًا غالبًا في المستويات الفرديّة المحدودة. فعلى مدى القرون التي مرَّت وخَلَتْ، كانت القراءات العلميّة للفقه والكلام والتّفسير حذرة في التّعامل مع القضايا الاجتماعيّة، ناهيك عن الحضاريّة. مع ذلك، تحكي قصص الحضارات والأُمَم في الأدب القرآنيّ بِوُضُوح وصراحة عن الأُمَم، وأسباب عميقة وبعيدة تؤدّي إلى عُروجها وارتقاءها، أو أُفولها وانحطاطها، فاضمحلالها. هذه إشكاليّة تفرض علينا، بالضّرورة، انزياحًا شاملًا من النّزعات الفرديّة نحو الآفاق الاجتماعيّة والحضاريّة، بل العالميّة، في عمليّة الفهم والتّنظير والتّطبيق.

ولنتدبّر، على سبيل المثال، في الآية الكريمة عن موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

نلاحظ هنا، أنّ موسى عليه السلام يخاطب «القوم»، ولا يتحدَّث إلى أفراد متفرّقين.

1- سورة الأعراف، الآية 128.

وهذا يشير، بوضوح، إلى أنَّ «القوم» كانوا عُرْضَة للتّحدّي والغزو والضّغوط. وتاليًا، فإنَّ الخطاب في الآية يحمل طابعًا قوميًّا، إنْ صحّ التّعبير، لا خطابًا فرديًّا. في هذا السّياق، تظهر الاستعانة باللّه، وكذلك الصّبر والاستقامة، بوصفها قِيَم قوميّة اجتماعيّة ذات بُعد أُمَميّ. وعلى نحو مماثل، تضيف الآية رؤية مستقبليّة من خلال ذكر «عاقبة المتّقين»، ممّا يؤكّد البُعد القوميّ والاجتماعيّ لمفهوم التّقوى.

وفي سياق متّصل، تلفت كلمتا «ورابطوا» و«صابروا» انتباهنا في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1].

فالمصابرة هنا ليست مجرّد فعل فرديّ، بل هي عمليّة اجتماعيّة تتفاعل فيها جهود الأُمّة في إطار شامل، وذلك من خلال تفعيل آليّات تواصليّة وترشيدها، على غرار «التّواصي» بالصّبر والحقّ في سورة العصر. وبالمثل، فإنَّ «توريث الأرض» المذكور في عديد من الآيات القرآنيّة يُمثّل إشارة قويّة إلى النّطاق الحضاريّ، بل العالميّ، لحركة أهل الحقّ.

لنتأمّل أيضًا في قوله تعالى: ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ ﴾[2].

تظهر الصّورة الصّراعيّة في هذه الآية بمنتهى الوضوح والصّراحة. فموسى وهارون، ومَن معهما مِن قوم، كانوا في اشتباك هائل الأبعاد مع فرعون وقومه ومشروعهما. وكلمة ﴿ بِمَا صَبَرُواْۖ ﴾ تحتلّ مكانة مركزيّة ومفتاحيّة بحقّ. وهنا، نحن أمام «صبرُ قوم» و«قَوم صابر»، وهو صبر يختلف في طبيعته وقواعده عن الصّبر في إطاره الفرديّ الضّيّق. وعلى خلاف القراءات التّربويّة اللّيبراليّة أو العلمانيّة، التي تُقدِّم الصّبر كفعل فرديّ محدود، يُبيّن القرآن أنَّ الصّبر في بُعده القوميّ والحضاريّ هو مفتاح التّحوّل والانتصار في مواجهة التّحدّيات الوجوديّة.

الكدح والسّعي وعلاقتهما بالاستقامة برؤية حضاريّة

في سياق متّصل، يُعزّز القرآن مفهوم الاستقامة من خلال وصف حركة الإنسان في الحياة بالكدح، كما في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحًا

1- سورة آل عمران، الآية 200.

2- سورة الأعراف، الآية 137.

فَمُلَٰقِيهِ ﴾[1]. يشمل هذا الكدح جميع أبعاد الحياة، مِنَ السّعي المصحوب بالآلام والتّحدّيات منذ الولادة حتّى الموت. وتكمنُ أهمّيّة الاستقامة هنا في كونها الطّاقة التي تُقاوم القوى السّلبيّة المُعاكسة لمَسيرة الإنسان. فمن دون الاستقامة، يَفقدُ السّعيُ معناه، ولا يتحقّق النّصر إلّا بالصّمود والمقاومة.

عند الانتقال إلى السّعة الحضاريّة لمفهوم «الكدح»، لا بُدّ من توسيع رقعة دلالته، أو بالأحرى إنّ الدّلالة القرآنيّة لـ«الكدح» واسعة في الأصل، لكنّ التّوجّهات الفردانيّة في فهم القرآن الكريم، والمناهج التّأويليّة التّقليصيّة المعتمدة في تراث المفسرين في التّعامل مع القرآن الكريم، هي التي حدَّت من هذه السّعة. إنَّ الحضارة ليست سوى الإطار الأوسع والأشمل للكدح الإنسانيّ، ولا يمكن الخروج منه أبدًا.

لا يكتمل معنى الكدح إلّا ضمن مفهوم الاستقامة، وترتقي مراتبه بقدر هذه الاستقامة، والعكس صحيح أيضًا. بناءً على ذلك، فإنَّ الإنسان المستقيم هو كادح في حركته الاجتماعيّة، وفي علاقاته مع البيئة الشّاملة في حياته. هذا الكدح، هو نتيجة الصّراع الذي يعيشه الإنسان كيفما عاش، ومهما اختلف نمط حياته. ولا يمكن تصوُّر الحياة إلّا ضمنَ حركة الإنسان الكادحة. الاستقامة تطال الكدح نفسه؛ أي أنّ الكدح، إذا استقامت حركة الإنسان، سيكون منجزًا لكماله ورشده ورُقيّه. فالكدح ذاته سيكون مستقيمًا، بمعنى أنّه سيكون كدحًا يؤدّي إلى القيام والقوام والقومة.

الأبلغ من الكدح هو السّعي. فالكدح أقرب على التّكوينة الإنسانيّة والسُّنّة الفطريّة للإنسان، مهما كان اتّجاهه. لكنّ السّعي أقرب إلى الحركة البنّاءة للإنسان. ولأنَّ الإنسان يبني مستقبله ومصيره بالسّعي، فإنّه سوف يلقى سعيه ويراه في النّهاية، وفق التّعبير القرآنيّ في منظومة رائعة من شبكة دلالات مُركّبة عن السّعي في سورة النّجم[2].

ما يُحزن الإنسان هو التّوقّع الأيديولوجيّ من جانب الأُمّة من دون السّعي المطلوب لتحقّق المقاصد والغايات الكبرى، على الرّغم من أنّنا نلحظ أنَّ آيات السّعي تؤكّد حتميّة وقوع سُنّة السّعي في جميع مراحل الحياة الحضاريّة للمسلمين. هذا، مع أنَّ القرآن يتحدّث عن أنّ: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[3]. وثمّة آيات أخرى تروي

1- سورة الانشقاق، الآية 6.

2- ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴾ (سورة النّجم، الآيات 39-41).

3- سورة الطّور، الآية 21.

لنا قصّة الأُمم والحضارات بالخطاب نفسه، مثل الآية: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

والأمر المهمّ هنا، وضع الأجَل[2] لكلّ أُمّة. ومن الواضح البيِّن، أنَّ ذلك خير شاهد على أنَّ السّعي الجماعيّ في المستوى الحضاريّ الشّامل، هو الحاسم والمتحتّم على أفراد الأُمَّة. بقطع النّظر عن الإرادات الفرديّة الخارجة عن المسار الكلِّيّ. يُؤكّد الوحي أنَّ فلسفة النّبوّة وإرسال الرّسل والكتب، ترتبط أساسًا بالحضارة ـ الأُمّة، لا بالفرد، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ ﴾[3]. وعليه، فظاهرة البعثة هي ظاهرة أُمَميّة، ومضامينها تتعامل مع السُّنن التي تحسم مصير الأمّة. هذه الآية تفتح آفاقًا واسعة للدّراسات الحضاريّة في جانبها المرتبط بالوحي والشّريعة، وهي ميدان واسع للتّجديد الاجتهاديّ حول الفقه الاجتماعيّ، وكذلك المناهج المعرفيّة المعتمدة في التّفسير والتّأويل الدّينيّ.

في السّياق نفسه، نرى الرّؤية الحضاريّة تتجلّى في بيانات أخرى من القرآن الكريم: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[4]، وكذلك الآية: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[5]. وهي مداليل هائلة الأهمّيّة من شأنها أن تقلب موازين فهمنا لهذه المفاهيم. وبالتّحديد، هي تُغيّر رؤيتنا للمعروف والمنكر من المستوى الفرديّ السّائد الآن إلى المستوى الحضاريّ الاجتماعيّ الشّامل.

خلاصة القول هنا، أنَّ مفهومَي السّعي والكدح ينبغي أن يُفسّرا ضمن الإطار الحضاريّ العامّ، وأن يُنظَّر لهما ضمنَ مشروع الأُمّة ككلّ. وإذا كان الإطار هو للحضارة، لا يقتصر الهموم الفرديّة والمنكرات الشّخصيّة، فمن الطّبيعيّ جدًّا أن

1- سورة البقرة، الآية 134.

2- ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية 34).

3- سورة البقرة، الآية 213.

4- سورة آل عمران، الآية 104.

5- سورة آل عمران، الآية 110.

يكـون الظّلـم فـي رقعتـه الحضاريّـة والاجتماعيّـة والوطنيّـة هـو المقصـود مِـن فعـل المنكـرات في الآيـات السّـابقة، وأن يُعَـدّ الاسـتعمار والاسـتبداد وفسـاد الأنظمـة فـوق الأُطُـر الضّيّقـة الخاصّـة. هكـذا كان روّاد النّهضـة الإسـلاميّة، وخصوصًـا القائـد لهـذه الحركـة فـي عصرنـا الإمـام الخمينـيّ، يفهمـون الأمـر ونَسَـقَه.

وفـي الإطـار ذاتـه، لا بُـدَّ مـن إخضـاع مفهـوم الاسـتقامة لهـذا التّحـوُّل العميـق، وعدّها أسـاس قيـام الأمّـة والحضـارة ـ فالاسـتقامة تأتـي من الأصـل اللّغويّ نفسـه ـ أمام مشـاريع هيمنـة وظلـم واسـتكبار بالسَّـعَة نفسـها فـي الحـدود والمَديَـات. ضمن هـذا الخـطّ التّأويليّ والتّفسـيريّ القرآنـيّ، ينبغي وضع مفهـوم «الابتلاء» و«التّقوى» و«العبادة» و«الاسـتعانة» و«الهدايـة» وغيرهـا ضمـن المنظومـة الشّـاملة لمفاهيـم القـرآن الكريـم. وينطبق هـذا أيضًا على المفاهيـم الأخلاقيّـة والعقيديّة في لاهوت اللّسـان القرآنـيّ المُبين.

وعليـه، فـإنَّ المناهـج التّربويّـة وأسـاليب البنـاء الإنسـانيّ الاجتماعـيّ، وآليّـات العمـل الإصلاحـيّ الدينـيّ، سـوف تطالهـا تحـوّلات هائلـة. وفـي ضـوء هـذه الرّؤيـة، سينكشـف لنـا سـبب التّصدّعـات الحضاريّـة المرعبـة، وذلـك على الرّغـم مـن الالتـزام الشّـخصيّ لقـدر كبيـر مـن النّـاس في إطارهـم الفـرديّ. يكمـن السّـرّ فـي ذلـك، فـي أنّ المشـكلة الحقيقيّـة هـي مشـكلة حضاريّـة فـي فهـم القـرآن الكريـم، وفـي الفقـه الـذي ليـس علـى صراطـه المسـتقيم، كمـا رسـم اللّـه لـه الخارطـة والأفـق والحـدود؛ أي أنّ عناصـر الاسـتقامة القرآنيّـة الشّـاملة فـي القـرآن الكريـم لـم تنعكـس عليـه. والمشـكلة هـي أنَّ المسـلم المعاصـر يمكـن أن يكـون ملتزمًـا بجميـع جوانـب الشّـريعة، بمـا فيهـا الأمـر بالمعـروف والنّهـي عـن المنكـر، لكـن مـن دون أن يتّخـذ موقفًـا تُجـاه المذابـح والإبـادات الجماعيّـة التـي تجـري علـى الإنسـانيّة، فضـلًا عـن الأُمّـة الإسـلاميّة.

1. الاستقامة النّفسيّة[1]: مِنَ الأنسنة إلى الإنسانيّة:

أصعـبُ مشـاريع الاسـتقامة وأشـدّها فاعليّـةً فـي مواجهـة الأخطـار الحضاريّـة، هـي تلـك المرتبطـة بالنّفسـيّة الإنسـانيّة؛ لأنَّ حجمًـا مُرعبًـا مـن الخِـداع الذّاتـيّ هنـا قابـل للتّغلغُـل والتّسَـلّل مـن دون شـعور الإنسـان بهـا، كأنّ شـيئًا ينفـذ إلـى عقولنـا ووجودنـا خِلسـةً. وهـذا مُـردُّه إلـى قابليّـة الالتبـاس والاشـتباه الهائلـة فـي سـاحة النّفـس، فـي مـا

1- يتحـدَّث عبـد الوهّـاب المسـيريّ فـي أدبيّاتـه الفكريّـة المعمّقـة عـن «الإمبرياليّـة النّفسـيّة». راجـع: موقـع الجزيـرة، عبـد الوهّـاب المسـيريّ، الإعـلام والإمبرياليّـة النّفسـيّة، 13/5/2007م: https://aja.me/a3ulh.

يخُصّ ذات النّفس. ومن أبرز نماذج ذلك، مفهوم الأنسنة الرّائج منذ عصر الأنوار، ثمّ في أزمنة النّهضة والحداثة؛ إذ اشتدّ فيها حضورُ مصطلح الأنْسَنَةِ في الأدبيّات الفكريّة والفلسفيّة والثّقافيّة، مع تقدُّم الزّمن وتطوّر الظّروفَ الجديدة.

إنَّ إلقاء نظرة متأنّيّة في مسار التّحوّل الفلسفيّ الشّامل في الغرب خلال العصر الحديث، يكشف أنّ العودة إلى الإنسان وحده ـ منقطعًا عن جميع المَصادر الأخرى لبلوغ الحقيقة وتحقيق السّعادة ـ بوصفه أساسًا انحصاريًّا للمعرفة، ومِن ثَمّ كونه المنطلق الأوّل والنّهائيّ للبِناء الحضاريّ من دون التّراث الميتافيزيقيّ واللّاهوت المعرفيّ، كان المنزلقَ الأكبر والشّبكةَ القاتلة التي وقع فيها الإنسان نفسه ومنظوماته المعرفيّة؛ ذلك لأنَّ الإنسان وجميع طاقاته الإدراكيّة جزء من العوالم الوجوديّة الشّاملة، ولا يمكن بلوغ كنه الكينونة الإنسانيّة بالاقتصار على الذّات الإنسانيّة والتّنكّر لمَا سواها مِنَ المصادر الوجوديّة المحيطة به.

يبدو أنّه، مع البريق الهائل والجاذبيّة السّاحرة لكلمة الأنسنة، والشُّحنة الدّلاليّة الفلسفيّة الخلّابة لها، أصبح من الصّعب جدًّا تصوّرُ نجاح السّعي الرّامي إلى بيان حقيقة أنّ المخزون الفكريّ والدّلاليّ والقِيَميّ للكلمة، ضمنَ النّسقيّة الدّلاليّة والباراديغميّة (النّموذجيّة أو النّموذج الإطاريّ) لها، قد أدّى إلى العدميّة والعبثيّة الشّاملة، وتحويل الإنسان في هذا المفهوم إلى مجرَّد شيء مادِّيّ كأيّ شيء في الطّبيعة، وأنّ الإنسانيّة قد رحلت عن حياة الإنسان بفعل سيطرة فلسفة الأنسنة. والقصّة طويلة ومؤلمة جدًّا.

في ضوء المنهج القرآنيّ، تتبلور الاستقامة الأساسيّة في الجهاد الأكبر، أي في مواجهة استيلاء النّفس على الإنسان؛ لأنَّ طغيان النّفس[1] سوف ينعكس على جميع معادلات الحياة، مِن أبسط مستويات العلاقات الفرديّة، إلى أوسع وأشمل دوائرها في مستوى الأُمّة والحضارة. وفي ضوء سورة العلق، نجد أنَّ الإنسان يتورّط في الطّغيان المُدَمّر في حال الشّعور بالاستغناء، وهذا ما نراه في حمولة مفهوم الأنسنة الحداثيّة بصورة هائلة. وهي فكرة غبيّة جدًّا؛ لأنَّ الإنسان لو يُنظر إليه من منطلق الوعي العميق والحقيقيّ بالوجود المطلق، فإنّه في حاجة مستمرّة إلى ربٍّ أكرم عليه بكلِّ إمكانيّات المعرفة[2] وفرص الوجود.

1- ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ (سورة العلق، الآيتان 6-7).

2- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (سورة العلق، الآيات 1-5).

في المضمار نفسه، نلحظ أنَّ القرآن الكريم يؤكّد العلاقة بين الاستقامة والطّغيان. فالنّزوع إلى الطّغيان مركوز في نفس الإنسان، وهو يتجلّى في إلحاح داخليّ للتّورّط فيه، والاستقامة هي الطّريقة الصّحيحة لمواجهته. ومن هذه الآيات قول اللّه تعالى في سورة هود: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[1].

كذلك، تشير آيات كثيرة إلى منزلق النّزوع نحو سلطان الهوى واتّباعه، ووقوع الحضارة وجميع هياكل الحياة في الضّلال والخراب، منها الآية الكريمة في سورة الجاثية: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ ﴾[2].

أخيرًا وليس آخرًا، لو نظرنا في سورة يوسف، وفكرة النّفس الأمّارة، لرأينا احتمالات الطّغيان نفسه وأهمّيّة الاستقامة بمستواها: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾[3]. فلو استسلم النّبيّ عليه السلام لنزوع النّفس نحو الطّغيان، لانقلبت الأمور كلّها، حتّى تصل التّحوّلات الطّاغية إلى أعلى مستويات الحضارة، ولمَا شهدنا شيئًا مِنَ المآلات الحضاريّة في الحركة اليوسفيّة مستقبلًا.

وعليه، نستنتج أنّ مصير الحضارات يرتبط بنظرتنا إلى الإنسان وقواه النّفسيّة، ونمط التّعامل معها منعًا للوقوع في الطّغيان وغلبة الأهواء، التي سوف تقلب بدورها موازين الفاعليّة الاجتماعيّة والحضاريّة برمّتها. والإشارة إلى أنَّ تحصين النّفس مِنَ الوقوع في الانحطاط يمكن، عبر التّزكية والفلاح المترتّب عليها، أن يبلغ مستوى الفلاح الحضاريّ، وهو منجز هائل الأهمّيّة يتحقّق بالاستقامة النّفسيّة. هنا، من الضّروريّ التوقّف عند الآية الكريمة: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[4]. هذه هي الميزة المذهلة في الإنسانيّة القرآنيّة، إذا قُورنت بدلالات الأنسنة الحداثيّة المُهملة لفكرة التّهذيب والتّزكية النّفسيّة بصورة كلّيّة.

كذلك، في ضوء الآيات القرآنيّة نفهم أنَّ مقولة «إنَّ الإنسان ذئب للإنسان»، والاعتقاد بأنَّ الرّوحيّة الذّئبيّة، التي تحدَّث عنها لأوّل مرّة الكاتبُ المَسرحيّ الرّومانيّ «تيتوس ماكيوس بلوتوس» (Titus Maccius Plautus)، ثمَّ فلسفها

1- سورة هود، الآية 112.

2- سورة الجاثية، الآية 23.

3- سورة يوسف، الآية 53.

4- سورة الشّمس، الآيتان 9-10.

بشكلٍ أعمق، الفيلسوفُ الإنجليزيّ، «توماس هوبز» (Thomas Hobbes) في كتابه «اللّفياثان: المادّة، الصّورة، والسّلطة الكَنَسيّة والمَدنيّة للدّولة»، وجعلها من أهمّ مقولاته التي بنى عليها فلسفته السّياسيّة؛ أي القول بأنّ الذّئبيّة وروح الافتراس هي أساس البنية والطّبيعة البشريّة.

بالنّظر إلى الآيات القرآنيّة، على الرّغم مِن وضوح القول بأنَّ النّزوع نحو الطّغيان أحد الإمكانَيْن أو الخيارَيْن المتوافرين في الفطرة الإنسانيّة، إلّا أنّ آليّات السّلطة والدّولة والقانون، ليست هي الفضلى في منع انتشار الطّغيان، رغم ضرورة وجودها، وإنّما التّهذيب والتّزكية وتكريس القوّة والإرادة للاستقامة النّفسيّة هي الطّريقة الفاعلة.

2. الاستقامة القرآنيّة: أساسًا للحضارة الإسلاميّة الحديثة:

تَتَوافرُ في صوغ الاستقامة قرآنيًّا عناصر عديدة، تُمَيّزها عن المفاهيم المتماثلة في العرف العلمانيّ أو الدّينيّ، أو حتّى الإسلاميّ السّياسيّ، في القرنَيْن الماضيَيْن، تحت عنوان المقاومة وما شابهها، وتُضفي عليها أبعادًا فكريّة وصلاحيّات عمليّة، تناولَ بعضَها هذا المقال في أوراقها. والأكثر خطورة هو وجود نماذج علمانيّة لمفهوم المقاومة والاستقامة، حتّى أصبحت المقاومة تُوحِي في الوهلة الأولى بالاتّجاه اليساريّ العربيّ والإسلاميّ، لولا المقاومة الإسلاميّة المزدهرة في إيران ولبنان وفلسطين.

في الخلاصة، يمكننا القولُ إنَّ ما يُميّز حقًّا النَّسَقَ الحضاريّ الإسلاميّ الحديثَ عن غيره مِنَ الأنْساق الحضاريّة الفاعلة الأخرى، في الغرب بالتّحديد، هو هذا الجانب أو هذه الخصائص النّظريّة والسّمات العمليّة والتّطبيقيّة للاستقامة في ضوء مرجعيّة القرآن الكريم المعرفيّة. ذلك أنَّ إخفاقات كبيرة وخطيرة لحقت بالنّماذج الأخرى للاستقامة والمقاومة في التّنافسيّة الحضاريّة المعاصرة بين المدارس الفكريّة العالميّة.

العلاقة بين الاستقامة والحضارة في الرّؤية القرآنيّة هي ذات الاتّجاه الثّنائيّ؛ إذ إنّ الحضارة في ذاتها الحديثة لن تكون مؤهّلةً للبقاء والصّمود والفعّاليّة، إلّا في ضوء فكرة الاستقامة؛ أي تلك الحضارة التي تحظى بعناصر القوّة والصّمود في مَنطقه الدّاخليّ المنهجيّ، وفي مواجهتها للتّحدّيات الخارجيّة التّنافسيّة، وقدرتها على التَّأَقْلُم مع الظّروف الصّعبَة الحاكمة على الحراك الحضاريّ في هذا الزّمن،

وتعقيدات التّعامل معها على المستوى العالميّ.

كذلك الأمر بالنّسبة إلى الاستقامة، فالنُّسَخَ التّقليديّة منها، سواء تلك المتجاوبة مع الأُسس العلمانيّة ذات الصّلة بالنّماذج اليساريّة والمعارضة للغرب والإمبرياليّة، أو الأنساق والأنماط الإسلاميّة، لم تَعُد فاعلة وناجحة للبناء الحضاريّ الإسلاميّ الحديث، كما يصفها الإمام الخامنئيّ في أغلب إطلالاته الفكريّة المتّصلة بهذه الإشكاليّة، وبيان شروط الحضاريّة الإسلاميّة الحديثة.

3. الاستقامة وقابليّة الهيمَنَة في ضوءِ القرآن الكريم:

عند المقارنة بين الظّواهر الموضوعيّة الواقعيّة في الحياة والاستعدادات النّفسيّة أو قابليّاتها في النّفس الإنسانيّة، يظهر أنّ معالجة الثّانية أهمّ وأَوْلى؛ لأنّه مع وجودها لن ترحل الظّواهر الواقعيّة الخارجيّة. وعليه، يمكن التّأكيد أنّه لا توجد ظاهرة سلبيّة مستحكمة في الحياة الاجتماعيّة، إلّا ولها ما يقابلها مِنَ الاستعداد النّفسيّ لقبولها. ولعلَّ تسميتها بالشّروط الذّاتيّة والسّيكولوجيّة لتلك الظّواهر لا يجانب الصّواب.

من هنا، فإنَّ العلاقة بين فكرة الاستقامة، بوصفها حالة ذاتيّة تنعكس على الواقع وتحسم أمره، وبين كلّ ما يستهدفنا في مصالحنا، أو حتّى وجودنا، تؤكّد أنَّ الهيمنة لا يمكن أن تتغلغل في أيِّ ساحة أو ميدان إلّا بعد وجود فراغ نفسيّ أو نقطة ضعف في الدّاخل.

فلنتأمّل في الآية الكريمة: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾[1].

هذه الآية توضّح كيف أنّ الإطاعة العمياء التي أبداها قوم فرعون له، كانت نتيجة قابليّة الاستخفاف. ولولا هذه القابليّة لمّا نجحت محاولات فرعون في احتقارهم، والاستخفاف في حقّهم. تُظهر هذه الآية جانبًا آخر للقابليّة أيضًا، ولكن في نفس فرعون؛ لأنَّ طغيانه الكبير نتج عن قابليّتَيْن: إحداهما في نفسيّة القوم، والثّانية في نفسيّته هو. فقد عاش فرعون وَهمَ تصوّراته وحالاته النّفسيّة، فاستغلّ الكِبَر والاستغناء؛ ليُوهم قومَه بِتَفَوّقِه، مُستغلًّا ضعفَهم النّفسيّ (فسقهم وقابليّتهم للإغواء).

تُشير كلمة «استخفَّ» إلى استضعافهم نفسيًّا وعقليًّا، ممّا دفعهم إلى إطاعته

1- سورة الزّخرف، الآية 54.

على الرّغمِ من ظلمه. كانت القابليّة النّفسيّة للفِسق، أي الخروج عن الهُدى، هي التي مَكنت فرعون من فرض هَيمَنتِه، لقد أطاعوه؛ لأنّهم فقدوا الوعيَ باللَّه (النّسيان)، وسلّموا أنفسهم للغرور والخوف.

بناءً عليه، يتمتّع موضوع «القابليّة» بأهمّيّة بالغة؛ لكونه يفتح أفقًا كبيرًا للدّراسة الأنطولوجيّة. فعندما نتحدَّث عن النّفس، فإنّنا أمامَ حقيقة خارجيّة وجوديّة، بقطع النّظر عن المَنظومة المعرفيّة المتعلّقة بأحكام الفقه، ذات البُعد التّحريميّ أو التّحليليّ. نحن هنا أمامَ مشروع مُعمّق وتحصينيّ يربط مصير الحضارة بالإنسان وكينونته المُركّبة والشّاملة. هذا ما يمكن تسميته بالعناية المنهجيّة المعرفيّة القرآنيّة بالإنسان والحضارة بالمنطق الأنطولوجيّ، وانعكاس كلّ ذلك على فكرة الاستقامة. وهو نموذج فريد، لو قُمنا بتفكيكه وتحليله، ولا يُشبه البُنى والهَياكلَ القائمة للحضارات، لو قُمنا بِتركيبه ودمج أجزائه وإعادة بنائه.

إنَّ فهم هذه المفارقات تحتاج مِنّا آليّات التّقييم للأبعاد النّفسيّة للحضارة. وأغلب الظّنّ أنَّ بن نبيّ، المُفكّر الجزائريّ الخبير في الفلسفة الحضاريّة، هو وحده مِن بين المسلمين في القرآن الماضي تَفَطّنَ إلى الجانب المتعلّق بالقابليّة الأنفسيّة الإنسانيّة في مشكلة الحضارة، متحدّثًا عن «قابليّة الاستعمار» في شروط النّهضة.

يَلفتُ النّظرَ بعُمقٍ، عندَ التّأمّل في مَسار نزول الوحي القرآنيّ على امتداد ما يُقارب ربعَ قرنٍ من التّجربة الإنسانيّة الفريدة؛ تجربة عاشت منطقَ الوحي وتنزُّلَه في قلب الأحداث والتّطوّرات الاجتماعيّة المتلاحقة، وفي خِضمّ الصّراعات الضّارية بين الجبهات والمَحاور المُتصارعة على أُسُس الدّين وقواعد الفاعليّة في الدّنيا، وهي تمتدّ لتشملَ ما أشار إليه أبو نصر الفارابيّ في «كتاب الملّة» بـ«الملّة والرّئاسة الأولى والعلم المدنيّ».

ما يلفتُ النّظرَ حقًّا هو تركيزُ الوحي بصُورةٍ شاملةٍ وعميقةٍ على معالجةِ «القابليّاتِ النّفسيةِ» المعمّقةِ، التي تمخّضَتْ عن ظواهرَ، مثل الطّغيانِ والاستضعافِ وآليّاتِ الهيمنةِ، سواء انبثقتْ من قوى داخليّةٍ في بنيةِ النّفسِ البشريّةِ ذاتِها، أو مِن عواملَ خارجيّةٍ في سياقاتِ السّلطةِ والعلاقاتِ الاجتماعيّةِ والدّوليّةِ.

ليسَ الأمرُ مقتصرًا على التّشخيص فحسب، بل يصاحبهُ بيّناتٌ قرآنيّة عن القواعدِ الأساسيّةِ؛ لتحقيقِ الاستقامةِ النّفسيّةِ في الإنسان، تلكَ الاستقامةُ التي تُعدُّ أساسَ الصّمودِ والصّبرِ أمامَ التّحدّياتِ والمَخاطرِ الفرديّةِ والاجتماعيّةِ والحضاريّةِ.

وهذه البيّناتُ القرآنيّةُ، ليستْ كمستنتجاتٍ تجريبيّةٍ يضعُها الإنسانُ بآليّاتٍ وضعيّةٍ قابلةٍ للنّقضِ والإبطالِ، بل هي يقينيّات لا متناهيَة في الدّقّة والتّطابُق مع الحقائق، صادرةٌ عن منبعِ التّكوينِ وخلقِ الوجودِ، وغير خاضعةٍ لشُبهات معرفيّة، وفي الوقتِ نفسهِ تفتحُ آفاقًا رحبةً للمعرفةِ العقليّةِ، قابلةً للاختبارِ والتّجريبِ البتّة.

ولا مراءَ في أنَّ التّبصُّر الدّقيقَ في الجذور النّفسيّة الكامنة وراء هذه الظّواهر الاجتماعيّة والحضاريّة المعقّدة، يُمثّل بحدِّ ذاته مفتاحًا جوهريًّا لفتح آفاق جديدة وواعدة نحو مُقارَبة علاجيّة حقيقيّة وناجعة للبنية التّحتيّة، التي يُبنى عليها التّخلّف الحَضاريّ. بعبارة أخرى، مفهومَ الاستقامة الشّاملة، كما يطرحه القرآن في سورة الفاتحة، في ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]، واشتقاقاته في مُجْمل النّصّ القرآنيّ ككلّ، هو الفكرة المِحوريّة والوُجهة المَعرفيّة التي تُعالج هذه القابليّات السّلبيّة. فالنّفسيّة الإنسانيّة ليست مجرّد بُعد سطحيّ، بل هي متأصّلة بعُمق في جميع أبعاد الحياة، وهي الفاعليّة الحقيقيّة الدّائمة الحضور التي تُشكّل المكْنونَ الأعمق الكامنَ وراءَ كلّ الواقع الحضاريّ ومُحرّكه الأساسيّ.

من أشدّ أنواع الاستقامة والمقاومة هو النّوع المرتبط بالغريزة، وهنا يُحسَمُ الأمر الحضاريّ بصورة غريبة. فكما يرى مالك بن نبيّ، تسعى الغرائز دائمًا للتّحرُّر مِنَ الفكرة الدّينيّة، وبعد ما نجحت في ذلك وفرضت نفسها على الإنسان والمجتمع، وجميع الظّواهر فيه، ستفقد الحياة بعد ذلك عاملَ الرّوح، لتبدأ الفكرةُ الدّينيّةُ بالأفول وفقدانِ نفوذها بالكامل. وهنا، وفقًا لاعتقاد بن نبيّ، تنتهي الوظيفة الاجتماعيّة للفكرة الدّينيّة في مجتمع منحلّ دَخَلَ في ليل التّاريخ. وبذلك، تنعدم حياةُ الحضارة. يتصوَّر بن نبيّ أنّ خير شاهد على ذلك هو عهد بني أُميّة[2]، الذي

1- سورة الفاتحة، الآية 6.

2- سعى مالك بن نبيّ، في أكثر مِن موضع من كتبه، إلى الإشارة لدور الأمويّين في إضلال الحضارة الإسلاميّة. ويطلق على ذلك «لحظة صفّين»، أي اللّحظة التي غلب فيها معاوية، الذي يمثّل مدرسة الفساد والشّهوات والغريزة وفقدان الرّوح، على مدرسة عليّ، التي تُمثّل مدرسة الرّوح والقرآن والعشق الإلهيّ. وتُمثّل صفّين لحظة موت الحضارة بموت الرّوح فيها.
مالك بن نبيّ، القضايا الكبرى، ط1، دمشق، دار الفكر، 2000م، ص 162. مالك بن نبيّ، شروط النّهضة، ط1، دمشق، دار الفكر، 2000م، ص 53.

قضى على الحضارة بعد سيطرة الغريزة والرّغبات الدّنيويّة المادّيّة وزوال الرّوح[1].

إنَّ الحضارة التي تُبنى على الاستقامة القرآنيّة المرتبطة بالقابليّات النّفسيّة هي «حضارة الذّكر»، في حين أنّ جوهر الحضارة الإنسانويّة الغربيّة يمكن تسميتُها بـ«حضارة النّسيان». ومن المعلوم، أنَّ «الحضارة الذّاكرة» للإلهيّات تحظى برؤية شموليّة وجوديّة، ولها من الآثار المُذهلة للذّكر الإلهيّ ما يتجلّى في مركزيّة السّنن، والقواعد الوجوديّة للمعرفة، وآليّات الحركة والتّطبيق. ولعلَّ الأمرَ الإلهيّ بالذّكر في القرآن، في صوغ «واذكروا» أو «واذكر» وما شابههما، بهذه الكثافة الاستعماليّة دليل على ذلك.

إنَّ نسيان الأُمَم للذّكر الإلهيّ، أدّتْ إلى الاضمحلال[2] والتّلاشي سابقًا، واليوم ستكون النّتيجة نفسها، إلّا أنَّ آليّات الاضمحلال ومساره اختلفا اليوم لأسباب إلهيّة تتّصل بالعقلانيّة، والقوّة الإدراكيّة والسّننيّة المتوافرة اليوم، ممَّا بدَّل أساليب العواقب فيها.

يمكن الإشارة إلى بعض الآيات التي تدعم هذا الفهم، وهي:

- ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3].
- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾[4].
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[5].

1- مالك بن نبيّ، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعيّة)، ط7، دمشق، دار الفكر، 2009م، ص 105.

2- يُنقل عن المسيري ما يمكن عدّه رابطًا بين مصير الحضارات والإيمان باللّه: «اللّه هو الرّكيزة الأساسيّة لكلّ شيء، الرّكيزة الأساسيّة للتّواصل بين النّاس، لضمان أنَّ الحقيقة حقيقة. فإنْ نُسِي اللّه، ركيزة الكون كلّها تنتهي». لم يُعثر على مصدر موثّق لهذا القول في مؤلّفات المسيري، لكنّه منسوب إليه على نطاقٍ واسع.

3- سورة الأعراف، الآية 69.

4- سورة إبراهيم، الآية 9.

5- سورة الأنفال، الآية 45.

- ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾[1].

المهمّ، هو ألّا نُضيّق إطارَ الدّلالة القرآنيّة، طالما أنّها غير مُقيّدة في النّصّ الأصليّ. على سبيل المثال، «الإعراض عن ذكر اللّه» في الآية: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[2]، له مفهوم عامّ يشمل الإعراض وأساليبه وأسبابه، وكذلك في النّتيجة؛ أي في «الضّنك» الذي يغرق الإنسان وحياته في الاختلال والمرارة والتّخبّط.

ولا يمكن تقييد حدود ظاهرة الضّنك في البيئة الفرديّة، وإنّما الضّنك النّاتج عن نسيان اللّه والإعراض عن ذكره سبحانه وتعالى قد يكون ضنكًا حضاريًّا. هذا ما نراه بأُمّ العين في مسارات الإنسان المتورّط في الحضارة الغربيّة الشّقيّة[3] الغارقة في العبثيّة والعدميّة الشّاملة.

تحتوي الآيات ذات الصّلة بالموضوع على عدد هائل مِنَ المفاهيم الدّقيقة، التي تمنحنا اتّجاهًا منطقيًّا للمنهجيّة المعرفيّة القرآنيّة، في بيان عناصر الوهن والضّعف في الاستقامة. كما أنّها تختزن منظومة عمليّة ونظريّة يضمن الالتزام بها تحقّق الانتصار والفلاح والفوز والثّبات في جميع الحدود والمديَات. والمذهل في هذه الآيات، وأمثالها كثيرة جدًّا، هو أنّها تتحدَّث عن ظاهرة الهلاك والفلاح للأقوام والأُمَم، لا للأفراد العُصاة والمُذنبين. هذا خير شاهد على أنَّ الظّواهر المؤدِّية إلى إهلاك هذه الأقوام، هي ظواهر اجتماعيّة تفاعليّة شاملة، والتي من شأنها أن تتمخَّض عنها انهيارات وتداعيات على الصّعيد الحضاريّ، مهما اتَّسعت رقعتها وحدودها. وخاصّيّة أنَّ الذّكرَ الحضاريّ فيها، أيضًا، تُؤكّد رُسوخَ عناصر الصّمود والبَقاء والإقلاع الحضاريّ.

المثير للاستغراب حقًّا هو «النّسيان الأنفسيّ» الجارف، أو بتعبير أدقّ، تَنَكّر الذّات الفاعلة بعمقها الحقيقيّ في البناء الحضاريّ، والغرق المفرط في وَهم الموضوعيّة والاضمحلال الذّاتيّ، والانصهار في الذّاتيّة الغربيّة. وهو ما لوحظَ بشكلٍ خاصّ في المشاريع الفكريّة والحضاريّة الحديثة، ولا سيّما تلك المتأثّرة

1- سورة الأعراف، الآية 165.

2- سورة طه، الآية 124.

3- ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (سورة طه، الآية 123).

بالفلسفات الغربيّة المعاصرة، التي اكتفت بالجنبة الغريزيّة أو الاقتصاديّة أو السّياسيّة الظّاهرة من النّفس، مُهمِلةً الجوانب الأعمق والباقية والخالدة منها، والتي هي مصدر الاستقامة الحقيقيّة والقوّة التّغييريّة.

لعلَّ هذا المنحى المعرفيّ الاختزاليّ، الذي سادَ العقلَ العربيّ والمُسلم في العقود الأخيرة، هو السّبب الرّئيس وراءَ تَجاهلِ الأسباب النّفسيّة والجَذريّة للمُشكلة الحضاريّة التي تُعاني منها الأُمّة، باستثناء مُحاولات فكريّة رائدة لقلّة مِنَ المفكّرين النّقديّين المتبصّرين، مثل المفكّر الجزائريّ الرّاحل مالك بن نبيّ، الذي كان مِن أوائل من أشار إلى «القابليّة للاستعمار»[1]، بل نَظَّرَ لها وتَفَلسَفَ بعمقٍ حولَها، مُعتبرًا إيّاها مَرضًا نفسيًّا وحضاريًّا عميقًا. وكذلك، يبرز مشروع الإمام الخمينيّ الاستنهاضيّ الحضاريّ القائم على الدّعوة إلى العودة العميقة إلى الذّات الإسلاميّة، والخلاص من الاستلاب الهُويّتيّ العميق.

يمكن القول إنّه من مُتَبَنّيات هذه الورقة هي أنّ العنصر الأكثر حَسْمًا وفاعليّةً في مُجمل المَعارك والصّراعات على مستوى الحضارات والثّقافات هو العامل السّيكولوجيّ والنّفسيّ[2]، لما يمتلكه من قدرة على توجيه الإرادات وصناعة الواقع، من دون إنكار دور المادّة والتّقنيّة والعناصر الأخرى. القرآن الكريم غنيٌّ جدًّا بالآيات التي تتناول القابليّة النّفسيّة للانحرافات والسّلوكيّات السّلبيّة، مثل الطّغيان، والفساد، والإفساد، والاستضعاف، وغيرها من الظّواهر. يرتبط كثير من هذه الظواهر بخصائص النّفس البشريّة، مثل القابليّة للانحراف، والغواية، والاستجابة للدّوافع والشّهوات، وضعف الإرادة، أو الرّغبة في التّسلّط أو الانقياد.

في ضوءِ ما مرّ من خطورة الإلفات إلى التّصدّعات النّفسيّة ودورها في

1- مالك بن نبيّ، شروط النّهضة، ص 86.

2- من اللّافت في فكر مالك بن نبيّ التّحليليّ حول الحضارات تركيزه على الجانب النّفسيّ المتمثّل في البُعد الغريزيّ؛ إذ يرى أنَّ نهاية الحضارات مرتبطة بطغيان الغرائز في الإنسان. في رأيه، إذا تبنَّى الإنسان الفكرة الدّينيّة في حياته، فذلك يعني أنَّه فتح المجال أمامها لتهذيب غرائزه وضبطها بقواعد نظام مُعيّن. وهنا، يُمثّل التُحرُّر الجزئيّ من سيطرة الغريزة المركوزة في نفس الإنسان وطبيعته -في اعتقاد بن نبيّ- نقطة التّلاقي بين الدّين والإنسان الطّبيعيّ المهذّب الغرائز، وهي الشّرارة التي توقد مشعل الحضارة. تلاحظون العلاقة العميقة والوجوديّة بين مآلات الحضارات ونفسيّات الإنسان وغرائزه. راجع: مالك بن نبيّ، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعيّة)، ص 88.

التّداعيات الحضاريّة، نشعر بالمزيد من المسؤوليّة أمام التّأمّل في نظريّة الاستقامة النّفسيّة المطروحة في القرآن الكريم، والآليّات الفعّالة في تنشيطها في المرحلة الحضاريّة، التي نشعر فيها بالضّعف والتّخبّط والتّوتّر الحضاريّ.

جَشَعُ الرّأسماليّة والهيمنة والنّهاية المأساويّة للإنسان والحضارة

أودّ أن أبدأ بالتّنويه إلى أنَّ فكرة الاستقامة ومرتبتَها ومُستواها، إذا أردناها أنْ تكون فاعلةً ومكتملةَ الأركان، فلا بُدَّ من أنْ تتفاعل مع طبيعة المحاولات الرّامية إلى السّيطرة والهيمنة والطّغيان؛ لأنّها تنطلق وتتحرّك في خرائط المستعمرين وأرضهم، وهذا يتطلَّب أن تكون قادرة على إفشال مُخطّطاتهم عمليًّا. تَستوجب دراسة هذه النّسبة والتّفاعل والنّسق فرصة أخرى، أرجو أن تتوافر في قادم الأوراق؛ لأُقدِّم فيها قراءةً للآيات المرتبطة بهذا الأمر بالتّحديد.

بدايةً، لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ الغزو الحضاريّ الغربيّ، والسّيطرة العقلانيّة الغريزيّة المُفرطة على الذّهنيّة الإنسانيّة عالميًّا، أدَّت إلى إضعاف المفاهيم والمناهج والعلوم الإنسانيّة، أو استبدالها في كلِّ مكان، متجاوزةً بذلك جميع الأديان والمدارس الفلسفيّة الأخرى. هكذا، تحطَّمت أسوار الأفكار والأذهان قبل أنْ تَسقطَ الحدودُ الجغرافيّة والتُّخوم المادّيّة الصُّلبة.

ولم يكن لهذا الانقلاب العنيف على الذِّهن الإنسانيّ أنْ يتوغَّل بهذا العُمق، لولا وجود مشاريع فلسفيّة وتربويّة غربيّة مُنظَّمة تسعى إلى طمس جَذوة الأخلاق في الإنسان، وإطفاء شُعَلِ توجُّهه الدّينيّ الفطريّ. فبعد ذلك، صار الإنسان ـ سواء في الشّرق أو الغرب، مسلمًا أو بوذيًّا أو ملحدًا ـ سهل الانقياد؛ لأنَّ تخميد فاعليّة الفطرة وتَركيد الطّاقات الأخلاقيّة فيه، قد أفضى إلى تحجُّر القلب وإفقاده حِمْل الاستقامة والمقاومة والصّمود، ليُسَلِّمَ الإنسانُ وقلبُه كلّيّةً لانسيابه وغرائزه وشهواته. ومن ثَمّ، أدَّت مراكمة النّاس وتجاربهم هذه إلى الاضمحلال الحضاريّ عمليًّا.

وقبل الشّروع في هذا العمل، لا بُدَّ مِن رسم صورةٍ عابرةٍ للمشهد الحضاريّ المُحزن الرّاهن؛ إذ يُشكّل هذا الرّسم مدخلًا منطقيًّا يربط بين الواقع ـ الذي سنواجهه في تحليلاتنا ـ والطّرح العمليّ والنّافع الذي نَنشد إنضاجَه؛ لأنّه على الرّغم من تمتُّع الأُمّة الإسلاميّة بعناصر الخيريّة الفريدة، التي لم تُمنَح بمثل سُموِّها وعُمقِها لأُمّةٍ أخرى عبر التّاريخ، وعلى رأسها القرآن الكريم؛ ذلك النّور الإلهيّ

الخالد، والمنهج الأسمى الذي يَكشِفُ الحقائق الكونيّة، ويُرسي قواعد السّعادة الإنسانيّة الشاملة في الدُّنيا والآخر، إلّا أنَّ المشهد الرّاهن يُجسِّدُ تناقضًا صادمًا بين هذه القمّة في الطّاقات والفرص الرّوحيّة والحضاريّة، وبين واقع أُمميٍّ غارقٍ في التّردّي النّظريّ والعمليّ، تُجسِّده حياةُ المسلمين اليوم بكلّ وضوح.

لقد عَمِل الطّرفُ الآخرُ المُهيمن، طيلةَ القرون الماضية ـ وتحديدًا منذ أواخر القرون الوسطى ـ على نهضةٍ شاملةٍ لذاته، مسخّرًا كلّ إمكانيّاته وقُدراته الصّلبة والنّاعمة في خدمة أهدافه الكبرى: السّيطرة والهَيمنة على العالم. لقد سخّر هذا الطّرفُ جميعَ المُنجزات العلميّة والتّقنيّة، التي تحقّقت منذ عصر النّهضة وحتّى اليوم لخدمة مشروعه الاستعماريّ والإمبرياليّ المُوجَّه ضِدّ الأُمم الأخرى، سعيًا لتحويلها إلى أدوات في شبكته الهَيمَنيّة، فاقدةٍ للقدرة على تقرير مصيرها، بل مكبّلةٍ بقيود التّبعيّة المُطلقة.

غير أنَّ كلّ هذا الاستنهاض الغربيّ، وانتشار حالة التّخلُّف والاستضعاف في الأُمّة الإسلاميّة، وهَيمنة المستعمِر عليها بأبشع مَظاهر البطش والظّلم والتّدمير في كلِّ أبعاد حياتها، لم يستطع أن يَمحو روحَ المقاومة من صدور أبنائها. بل على العكس، انتشرت إرهاصات الاستقامة وتعمّقت في وجدان الأُمّة، مقترنةً بإرادةٍ متجدّدة نحو الاستنهاض الحضاريّ، تلك الإرادة التي تنبع من إيمان عميق بحتميّة التّغيير واستعادة الموقع المفقود في التّاريخ الإنسانيّ.

إنَّ المتأمّلَ في الأزمةِ العميقةِ التي تَعصفُ بالأُمّةِ الإسلاميةِ، والباحثُ عن سُبُلِ النّجاةِ واكتشافِ البدائلِ للأوضاعِ المأساويّةِ الرّاهنةِ، لا بُدَّ له من الخوض في أعماقِ هذه الأزماتِ وتعميقِ الوعيِ بجُذورها وتجلّياتها. فالرّؤيةُ الأيديولوجيّةُ التي تغفل حقيقةِ ما يُعانيهِ الإنسانُ المسلمُ المعاصرُ، والمنفصلةُ عن الحالةِ المُزريةِ للبُنى الأساسيّةِ في مجتمعاتنا، تَبقى عاجزةً عن مُقاربةِ الحقائقِ على أرضِ الواقعِ؛ لكونها مُكبّلةً بقيودِ عالَمِ الأفكارِ المُجرّدةِ والمِثاليّة.

لذلك، فإنَّ أنجَع المشاريع الاستنهاضيّةِ في هذا الزّمنِ هي تِلكَ التي تَتأسَّسُ على الرّؤيةِ الواقعيّةِ في مُواجهةِ التّعقيداتِ والإشكاليّاتِ القائمةِ، وتَتَكاملُ مع الإعدادِ الشّاملِ والاستعدادِ المُحكَمِ للاستقامةِ والثّباتِ والمقاومةِ، أمامَ الهجماتِ الكاسحةِ والمُخطّطاتِ الاستعماريةِ والغزوِ الحضاريِّ الذي يَستهدفُ الأُمّةَ في صَميمها.

إنّ التّحدِّيات الوجوديّة المُتأصّلة في نسيج الحياة الإنسانيّة تُشكّل العنصرَ

المحـوريّ الـذي يرسـم مَعالـم مسـارات مشـاريع المقاومـة، فالذيـن يُدركـون هـذه التّحدّيـات بصـدقٍ، ويتفاعلـون معهـا عاطفيًّـا بعمـق، مُتجنّبيـن أيّ شـكلٍ مـن أشـكال الإنـكار أو خـداع الـذّات، هـم الأكثـر اسـتعدادًا لمواجهتهـا بجـرأةٍ وتحويـلٍ مسـارها مـن تهديـدات خطيـرة إلـى فـرصٍ مبتكـرة ومُثمـرة. تظَـلّ الطّبيعـة الجوهريّـة لهـذه التّحدّيـات العامِـل الحاسـم الـذي يسـاعد القيـادات والسّـلطات المعنيّـة أو العقـل الاسـتراتيجيّ عمومًـا، علـى تحديـد أنمـاط المقاومـة المُتّبعـة والنّتائـج المترتّبـة عليهـا، والتـي بدورهـا سـوف تُفضـي إلـى الانتصـار المُشـرّف أو إلـى الهزيمـة المُحبطـة.

مِـنَ المُذهِـل حقًّـا أن نكتشـف الهيمنـةَ الشّـاملة للشّـركات الغربيّـة العملاقة علـى أدقّ تفاصيـل حياتنـا، مِـنَ المـأكل والمشـرب إلـى الملبـس وأدوات الحيـاة اليوميّـة. والأخطر مـن ذلـك التّسـتُّر المُمنهَـج علـى هـذه الحقيقـة، سـواء عبـر التّعتيـم الإعلاميّ أو التّلاعب بالمعلومـات. هـذا يحـدث علـى الرّغـم مـن أنّ تقاريـر غربيّـة عديـدة تكشـف دوريًّـا النّقـاب عـن أبعـاد هـذه السّـيطرة، التـي تُهـدّد سـيادة الأُمَـم وهُويّاتهـا.

فـي عـام 2023م، حقّقـت شـركة «كارجيـل» (Cargill) الأمريكيّـة، المُتخصّصـة فـي تجـارة الحبـوب والسّـلع الزّراعيّـة، إيـرادات بلغـت 177 مليار دولار، وهـو مبلغ يفوق ميزانيّـات دول بأكملهـا! أمّـا شـركة «نسـتله» (Nestlé) السّويسـريّة، العابـرة للقـارّات، والتـي تعمـل فـي 191 دولـة، فقـد ارتفعـت إيراداتهـا إلـى 103.9 مليـار دولار، بزيـادة 4.7 فـي المئـة عـن عـام 2022م، مـع سـيطرةٍ شـبه كاملـة علـى سلسـلة إنتـاج الأغذيـة، بـدءًا مـن حبـوب الأطفـال إلـى أطعمـة الحيوانـات الأليفـة.

هـذه ليسـت أرقامًـا افتراضيّـة، بـل هـي مُسـتقاة مـن تقاريرهـا الماليّـة الرّسـميّة، وهـي تُلخِّـص آليّـةً خطيـرةً: تحويـل الإنسـان إلـى «رقـم» فـي معادلـة الرّبـح، مـن خلال سـيطرة أقـلّ مـن 10 شـركات علـى 75 فـي المئـة مـن السّـوق العالمـيّ فـي قطاعـات حيويّـة، مثـل الأدويـة والزّراعـة والمـوادّ الخـامّ، وذلـك حسـب منظّمـة «أوكسـفام» (Oxfam) عـام 2023م.

لا يقتصـر الأمـر علـى الاحتـكار الاقتصـاديّ، بـل يتعـدّاه إلـى اسـتعمار ثقافـيّ يفـرض أنماطًـا اسـتهلاكيّة تـذوب فيهـا الخصوصيّـات المحلِّيّـة، بـدءًا مـن وجبـات «الماكدونالـدز» العالميّـة، وصـولًا إلـى مواصفـات الملابـس «المُعولمـة». والأمـر الأكثـر إثـارةً للقلـق، هـو أنّ هـذه الشّـركات تُمـوِّل أبحاثًـا علميّـةً، وتُؤثِّـر فـي السّياسـات الصّحِّيّـة والبيئيّـة، ممَّـا يجعلهـا مؤدّيًـا رئيسـيًّا فـي تشـكيل مسـتقبل البشـريّة.

فهل ندرك أنّ «البرجر» الذي نأكله، أو «القهوة» التي نشربها، قد تكون وليدةَ قراراتٍ اتُّخِذت في مكاتب مُظلِمة بمدينة نيويورك أو زيورخ؟ وهل نعي أنَّ استسلامنا لثقافة الاستهلاك السّريع هو تعزيزٌ لهذا النّموذج الأحاديّ الذي يمحو التّنوّعَ الإنسانيّ؟

هذه الأرقام المهولة للأرباح تبدو وكأنَّها مِن عالم الخيال، وتطرح تساؤلات جادّة حول مدى نفوذ هذه الشّركات، وقدرتها على التّأثير على الأمنِ الغذائيّ والاقتصاديّ والصّحّيّ للدّول الأخرى، بما في ذلك الدّول الإسلاميّة. فكّروا مليًّا، هذه ليست سوى شركة واحدة مِن آلاف الشّركات الغربيّة التي تسيطر على كلِّ تفاصيل حياتنا، بدءًا مِن طريقة أكلنا وشربنا ولبسنا، وصولًا إلى وسائل ترفيهنا وألعابنا، وحتّى ما نتعلّمه.

الأخطر من ذلك، هو أنَّ أغلب هذه الشّركات العملاقة، التي تسيطر على مفاصل الحياة في العالم، هي شركات أمريكيّة. إنَّها لا تكتفي ببيع المنتجات، بل تعمل بشكل ممنهج على «أَمْرَكةِ» نمط الحياة بشكلٍ شامل وكامل. لا يسيطرون فقط على ما نأكله ونشربه ونلبسه، بل يحاولون صياغةَ طريقة تفكيرنا وعاداتنا وقيمنا؛ لتتوافق مع النّموذج الغربيّ. هذه السّيطرة لا تتعلَّق فقط بالجانب الاقتصاديّ، بل تتعدّاه لتشمل الجوانب الثّقافيّة والاجتماعيّة، ممَّا يُشكِّل تحدِّيًا حقيقيًّا لهُويّة الشّعوب واستقلاليّتها. إنَّ مواجهة هذه الحقيقة المرعبة تتطلَّب وعيًا عميقًا بحجم المشكلة، وبدء العمل على بناء بدائل وطنيّة وإقليميّة قويّة، تستطيع مواجهة هذه الهيمنة المتغلغلة في حياتنا.

خلاصة القول، إنَّ حكاية المؤشّرات الحضاريّة في الأُمّة مُرعبة، والاستخفاف بمستوى هذه الهيمنة الشّاملة على كلِّ شيء لا يخدم أحدًا. ويجب الحديث الواضح الصّادق الحقّ مهما كان الثّمن، أو الإحساس بأعلى مراتب المرارة حول هذا الواقع؛ لأنَّ النّجاة في الصّدق، ولأنَّ في التّزوير والزّيف مَهلكة. ما نشهده اليوم في حياة المسلمين مِن ويلات وبلايا ومهانة، لا يمكن التّستّر عليه ببريق برج الخليفة، وفروع مكدونالدز، وحمل أجهزة «أبل» (Apple). ومِن الصّعب جدًّا، أنْ ندَّعي أنَّ الأُمّة الإسلاميّة في حالة صعود حضاريّ، والكوارث الحضاريّة تَصدمها في عمقها الوجوديّ.

بل إنَّ أدهى هذه الجوانب خطرًا، وأكثرها مَساسًا بصميم الوجود، يكمنُ

في البُعدِ الهُويّاتيّ للقضيّة. هنا، يكمن محلّ افتقادها وتشويهها، وموطنُ ذَوَبانها التّدريجيّ المُنهِك، وصولًا إلى استحالتها الكلّيّة واندماجها القسريّ في هُويّة الآخر الغربيّ المُهيمن الذي يفرضُ قالبَهُ في هذا العصرِ الجارِف.

إنَّ مصيرَ الأُمم والشّعوبِ معقودٌ بكينونتِها الهُويّاتيّة؛ فمتى ما تلاشت هُويّتها أو انصهرت، تلاشتَ معها كينونةُ هذه الأُمَم والشّعوبِ ذاتها، لتضمحلّ في غياهب التّاريخِ السّحيق، وتتحوَّل إلى مجرّدِ حكايةٍ بائدة. هذه حقيقة قرآنيّة صارخة، آية مُحكَمَة وبَيان إلهيّ قاطعُ الدّلالة، لا تقبلُ تبديلًا ولا تحويلًا، ولا يطالُها نسخ ولا تعطيل. إنَّها جوهرُ البقاءِ أو الفناء، ومنطلقُ الوعيِ الذي ينبضُ بالحياة أو الذّوبانِ في العَدَم.

لعلَّ مَا يُميّزُ رؤيتَنا، في هذا النّقاش، هو الإصرارُ على إعطاء الأسبقيّة للرّؤية الحضاريّة المستمَدّة من الاستنطاق القرآنيّ لقيم الاستقامة، وجعلُها المرجعَ المعرفيّ الأسمى فوقَ كلّ مصدرٍ أو منهجٍ أو إنتاجٍ علميٍّ في الحقول الدّينيّة والإنسانيّة؛ ذلك لأنّها تحتضنُ في ثناياها جميعَ الآليّاتِ الوظيفيّة الضّامنة للنّجاح الواقعيّ، والقادرة على إعادة رسم المسارات الكبرى للأُمّة، وتوجيهها نحو أفقٍ جديد من الفعل والبناء.

نحن نعي أنّ جوهرَ إخفاقاتنا يكمن في تآكُل الرّؤية التّوحيديّة الجامعة لمواضيعنا النّظريّة والعمليّة، والتّنافر بين مقاصدنا ووسائلنا المعرفيّة. لذلك، نُقدِّم هذا المنهجَ القرآنيّ بوصفه قلبًا نابضًا يردّ الاعتبار للتّكامل بين الهدف والآليّة، ويمحو التّناقضات التي سبّبتْ بُعدَ الأمّة عن مساراتها الحضاريّة الأصيلة. ومثالُ ذلك ما يُسيطر اليوم من «روح غربيّة» على أساليب التّفكير لدى فريقٍ مِنَ التّنويريّين والإصلاحيّين العرب والمسلمين. هذا الفريق يدَّعي السّعيَ إلى تحقيق المقاصد الشّرعيّة، لكنّه يسلك أحيانًا منطقًا يفصمُ صلته بروح الإلهيّات، ويولّد توليفةً فلسفيّةً مغلوطةً، لم تخلف وراءها سوى التّنافر النّظريّ والإرباك المنهجيّ وخرابَ المنطق العمليّ في مسيرة المسلمين.

إنّنا إذْ نُعوِّلُ على هذه الرّؤية القرآنيّة في الاستقامة، فإنّما نستنهضُ ضمائرنا وعقولنا؛ لنُشيّدَ جسرَ التّواصل بين مبادئنا الخالدة وخصوصيّات العصر، فتعودُ الأمّةُ فاعلةً في تاريخها ومسؤولةً عن دورها العالميّ، متسلّحةً برؤيةٍ موحّدةٍ تُشكّلُ لبّ نهضتها ومستقبلها.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع باللّغة العربيّة

- بن نبيّ، مالك، القضايا الكبرى، ط1، دمشق، دار الفكر، 2000م.
- ـــــــــ، شروط النّهضة، ط1، دمشق، دار الفكر، 2000م.
- ـــــــــ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ، ط1، دمشق، دار الفكر، 2002م.
- ـــــــــ، ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعيّة)، ط7، دمشق، دار الفكر، 2009م.
- الخامنئيّ، عليّ، المشروع العامّ للفكر الإسلاميّ، لا ط، تهران، انتشارات انقلاب إسلامي، 1400هـ.
- الطّباطبائيّ، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، لا ط، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، 2007م.
- عطيّة، أحمد عبد الحليم، عبد الوهّاب المسيريّ: دراسة في سيرته المعرفيّة ونقده لقيم الحداثة الغربيّة، قمّ، دار العتبة العبّاسيّة، 2019م.
- المسيريّ، عبد الوهّاب، إشكاليّة التّحيُّز، ط2، أمريكا، المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 1996م.
- ـــــــــ، الثّقافة والمنهج، تحرير سوزان حرفي، ط2، دمشق، دار الفكر، 2010م.
- ميرزائيّ، محمّد (نجف) عليّ، فلسفة مرجعيّة القرآن المعرفيّة في إنتاج المعرفة الدّينيّة، ترجمة دلال عبّاس، لا ط، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، 2007م.
- النّجم، زياد عبد الكريم، الحضارة الإسلاميّة في ضوء نظريّة التّحدِّي والاستجابة، ط1، دمشق، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 2007م.

المصادر والمراجع باللّغة الفارسيّة

- سوروكين، الكساندر پيتريم، نظريه هاى جامعه شناسى و فلسفه هاى نوين تاريخ، ترجمه اسداللّه نوروزى، تهران، انتشارات حق شناس، 1377هـ.ش.
- نوذرى، حسينعلي، فلسفه تاريخ، تهران، انتشارات طرح نو، 1402هـ.

المصادر والمراجع الإلكترونيّة

• موقع الجزيرة، عبد الوهّاب المسيريّ، الإعلام والإمبرياليّة النّفسيّة، 2007/5/13م: https://aja.me/a3ulh